جِدَارِيَّة العَاج

مآقي الباوباب

الكتاب: جِدَارِيَّة العَاج
الكاتب:فدوى سعد أحمد يوسف
تاريخ النشر : الطبعة الأولى 2022
رقم الإيداع:2022/0255

المدير المسؤول: اسامة عوض الريح
التصميم: الفنان التشكيلي بكري خضر
لوحة الغلاف: فدوى سعد وآية الدندراوي

الناشر
دار المصورات
للنشر والطباعة والتوزيع



الخرطوم غرب
شارع الشريف الهندي
المتفرع من شارع الحرية
ت:+249912294714
elrayah1995@gmail.com

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر -السودان
813.962401 فدوى سعد أحمد يوسف 1978 -ف .ح
جدارية العاج:رواية/فدوى سعد أحمد يوسف -ط1. -الخرطوم: ف .س .أ .
يوسف 2022.
146 ص : 24.
ردمك 978-99988-0-802-7 ISBN
1. القصص العربية- السودان.أ.العنوان

رواية

جِدَارِيَّةُ العَاجِ

مآقي الباوباب

فدوى سعد



الإهداء:

إلى أسلافِ الرِيح، ونَبْتِ بقايا الروح..





تِراجِيديَّة النظرات.. روائح البكاء

(١)

أشرقَتْ عيناي على أبٍ لم أعرفْ أنَّ لديه صفة أخرى غير أَبِي، خالي الشفيع يدي في يدهِ دومًا، أجلسُ على صدرهِ، أو كتفيهِ، تحيطُ يداي برأسهِ، هو أبي، رديف دراجتهِ الناريةِ، وبجانبِه على عربته بعد ذلك. لم أكن أعلم أنَّه ليس أبي إلَّا مِن نظرة غريبة ملئها الحزنِ تكسو العيونَ فجأةً، ومسحِ على رأسي مع همهماتٍ بصوتٍ خفيض حتَّى سمعتُها يومًا: «الله يرحم النعيم..!» سألتُ أمي مَن هو النعيم؟. فقالتْ: «إنَّه والدك تُوفِّي قبل ميلادك». سألتُها: ماذا يفعلُ الأبُ إذا لم يُتَوَفَ؟. بكتْ أمي قائلة: «ما يفعله خالك الشفيع..»

فقلتُ: «كيف أبي وليس معي؟» تواصل بكاء أمي،

قلتُ لها صائحًا: (أبي الشفيع) ذهبتُ إلى غرفتِهِ استلقيْتُ بجانبهِ، كعادتهِ حين نومه؛ أفسحَ لي مجالًا بجانبهِ، ثُمَّ وضعَ يدهُ على

كتفي، نِمْنَا معًا. أشبهُهُ في بنيةِ جسمهِ، ملامح وجههِ، ومَن يرنا؛ يرَ أبًا وابنه، ولا نعيم بينهما.

فِي المدرسة الأساسِيَّة الصف الأوَّل مُشرفة الصف تتأكدُ مِن أسمائنا، تلتْ اسمي الذي تُحفِّظُهُ لي أمي وتُكَرِّرُهُ لي دائمًا (المُعِز النعيم شمس الخير).. ثُمَّ نظرَتْ لي قائلة: «أنت وخالد الريح السمرابي تم إعفاءكما مِن جميعِ المصاريف الدراسِيّة ليتمكم)؛ الفصل بطلابهِ مقاعدهِ، حوائطهِ، وسبورتهِ، التفتوا إلينا، أعينهم تحمل تلك النظرة، أحسستُ أنَّ عينيّ اكتستْ بها، انحنى ظهري، ظهري الذي يوصيني أبي الشفيع أن أجعلهُ مستقيمًا متوازنًا. تمَلَّكني شعورٌ لا أعرفه، جاء أبي نهاية اليوم الدراسي، سألتهُ: ماذا تعني كلمة يُتْمكم؟.

قال: «في المنزل أخبرك.» وصلنا وضع الخوذة في غيرِ موضعها! لم يفعلها مِن قبل. وقفتُ أمامهُ انتظر الإجابة لسؤالي المؤجل، فقال: «الطفل الذي يفقد والده يسمى يتيم.

فقلتُ: «حتى لو لم يلتقي به؟».

قال: «نعم، مكانة الوالد عظيمة؛ لا يمكنُ لأحدٍ أنْ يحلَّ مكانها، والله تعالى قال (فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلا تَقْهَر)..»

قلتُ: «ماذا تعني لا تَقْهَر؟.»

صمتْ ثُمَّ قالَ: « الكل يحبك يتلطف بك، ويسعدك، ويحفظ حقوقك.»

«عندما نظرَ لي طلاب الفصل؛ هل هذه عين لطفٍ لا تقهر؟. لطف لا تقهر تشعرُني بالحزنِ والضعف، كيف لحبٍّ أنْ يشعرُك بالحزن؟ عمَّتي (منى) كُلَّمَا وقعتْ عيناها عليَّ؛ سالتْ دموعها.. هل

هذه دموع حبٍّ لا تقهر؟». صمتَ فترةً، ثُمَّ قال: (حلواك في الثلاجة) بطريقةٍ لم أسمعها منه من قبل، لكنني سمعتُها منه عندما أخبرتُهُ أنَّ خالد الريح اليتيم الآخر في الفصلِ غائبٌ اليومَ. كُلُّ شهر يغيبُ في نفسِ الوقت لاستلام كفالة الأيتام، تأتي جدتهُ ليذهبا معًا، لا يُسمَح لها بصرفها بغير حضورِهِ، هزَّ أبي رأسَهُ عُدَّة مراتٍ، مرددًا يغيب كل شهرٍ، قلتُ نعم! وهي قليلة جِدًّا، شتم أناس لا أعلمهم قائلًا يقهرهم الله، هنا أدركتُ أنَّ هناك معنى آخرًا للقهر.

قال لي: «مستلزماتُك، وخالد نشتريها لكما معًا.»

«حاضر يا أبي؛ لأنه يتيم؟.»

«لا.. لأنَّه صديقك بالمدرسة في المقام الأول.»

بما أنَّهُ قد تَمَّ عناقي ملايين المرات أصبحَتُ مُلِمًّا بِكُلِّ أنواع العناق القاهرة في دنيا اليتم؛ عناق عمَّتي منى يصحبُه بكاء بصوتٍ عالٍ، تضغط بقوة بيديها على ظهري، ذقنها يغوصُ في كتفي؛ هذا عناق أنا لا شأن لي بهِ، هي تشتاقُ لأخيها تفتقدهُ؛ تراني هو أحسُّ بذلك في دموعها، رائحةُ بكاءها.. هل يعلمون أنَّ للبكاء رائحةً تقهر؟ خليط رائحةُ البصاقِ، المخاط، وأنفاسِ البطنِ الخاوية كانتْ تقهَرُ دواخلي، أَلَمْ يخبرهم الربُّ أَلَّا أُقْهَر؟! ثُمَّ عناق آخر تتحَرَّكُ فيه الأيدي علي ظهري في نفسِ موضعها مِن أعلى إلي أسفل تخبرُني أنهُ حَزِنَ عليَّ، وتحسَّرَ على النعيمِ الذي لم يرَ ابنهُ، عناق مربك آخر يدٌ تربتُ بخفةٍ لا أحسُّ بها على ظهري، هذا عناقُ منافقٌ لا يهمّهُ أمري فقط يريدُ أجرَ ربي. بهجتي عناق أبي الشفيع، لم يكنْ يومًا عناقًا في الأرضِ يحلِّقُ بي دوما في الفضاءِ مبتهجًا، نظرة تقهرُ لم أرها في عينيهِ أبدًا، يدغدغني داخلَ قلبي ينسيني جميعَ النظرات التي تقهرُني. أبي الشفيع هو أبي، وإِنْ قالتْ الأوراقُ الثبوتِيَّة غير

ذلك. نظرته الضاحكة جعلتها لجميع الأطفال الأيتام ليحيوا أطفال طبيعيين غير مقهورين كما أمر الإله.

(٢)

الفصل الأوَّل الثانوِيّ لا أحد يسألُ عن أبيك أو والدتك، تُخَاطَبُ بولي أمركْ؛ أسعدني الخطابُ الجديد. ابتهجَتْ المدرسةُ بوصولِ طلاب الفترة التدريبِيَّة مِن بعضِ الجامعاتِ؛ جعلَوا للمدرسةِ هواءً وروحاً. وقفتْ أمامنا مَنْ عَرَّفَتْ بنفسها قائلةً: (سُها السيد عمر، طالبة تدريب لمادة اللغة الإنجليزِيَّة) ابتسمنا.. لم نألفْ صوتًا كصوتِها. لدينا أستاذة واحدةَ تُوفِّيَتْ بالسرطانِ بعد شهرين من بدايةِ العام الدراسيّ، صوتها الواهن يسكنُ أذني؛ تكرَّرُ علينا يجب استغلالُ أي دقيقة نجدها، للتقدُّم في المقررِ إذا تَوَفَّاني الله، سأكُون مطمئنة عليكم! مضيفةً يترتبُ كثيرٌ من الوقتِ من أجل أستاذٍ بديل. تقرأ لنا القصائدَ بانشراحٍ تام ومرح، حاجباها رموش عيناها غادرا أماكنهما، ملامحها تحكي كيف الرحيل ببطء تغرِسُ آخر الفسائل فِي طريقها برقةٍ ولطفٍ، تصادقُ الموتَ..

تحييه تسأله؛ لم يحن الوقتُ بعد؟

يقولُ لها: عليك بِرَيّ نبتَكِ لهذا اليوم أيضًا!

كُنَّا نبتها الأخير في دنيا الأرض. التفت إلى زملائي في الصفِ، هل تتذكرون نظرةً لا تقهرْ؟ الأعُين تنظرُ إليها نفس تلك النظرةِ التي أكرهُهَا وتؤلمني؛ أدركتُ أَنَّ لها معنىً مختلفًا؛ الحزن على السابقين ومَن يترقبُ الموتُ، ويدركُ طريقَهُ يُزَيِّنُ موضع الخطواتِ بالعطاءِ، الإحسانِ، الابتسامِ. قد تموتُ غدًا! تُدرسُنا بفرحٍ واهن. لا تعلمُ أَنَّنَا كُنَّا لا ننتَبِهُ لما تقرأ لنا، نترجى الموتُ أنْ لا يفعلها هي لا تستحقُ؛

تحملَ همَّنا، تحمي مستقبلنا ببقايا روحها لأنَّها تعلمُ مَن تركوها قائمةً على العملِ؛ رغم مرضها لن يأتوا بأستاذٍ جديدٍ. هززْتُ رأسي كما فعل أبي يوم أخبرتُهُ بمعاناةِ خالد مع كفالة الأيتام شتمتهم الآن أعلمُ مَنْ هم قاهري خالد، وقاتلي مُعَلِّمَتِي.

ابتدرتْ أستاذة سُهَا درسها الأوَّل لنا؛ City life صوتُها يجبرُكَ على الإنصاتِ الكُلِّيّ Nairobi, the Capital of Kenya حتَّى وصلتْ إلى مِن الأماكنِ السياحِيَّة Animal Orphanage موضحةً أنَّه المكان الطبيعي الذي يتمُّ الاعتناء فيه بالحيواناتِ، والطيورِ المصابةِ والصغيرة التي لا عائل طبيعي لها إلي أنْ يشتدَ عودها، تنقلُ للحديقةُ الوطنية التي يمكن أنْ ترى فيها الحيوانات التي يُطْلَقُ عليها لقب الحيوانات الكبار،Elephant ، Giraffe ، Hippo،-Buf falo ،Zebra ،Wildebeest ، White Rhino ،Black Rhino ،Lion ،Leopard.

مضيفةً أنَّ كلمة Orphanage أيضًا تُطْلَقُ على الطفلِ اليتيمِ، مبهرةً جدًا الصغار من كلِ الحيواناتِ والطيور، ومدى التفاني في الاعتناءِ بهم. توقفتْ كلماتها الواصفة لجمالها في قلبي وعقلي محدثًا نفسي برؤية رفقائي Orphanage كينيا مِن الحيواناتِ والطيورِ وكان لي ذلك، رأيتُ جمالهم، سحرهم وحزنهم على سودانٍ وحيد قرننا الأبيض الذي تُوفِّي بينهم بأمانٍ.

التينة المقدسة

(١)

كليةُ الفنونِ الجميلةِّ؛ في طريقي إليها أستقلُّ مركبةً عامة أحملُ بَيْنَ يدَيّ شجرةً التَين التي صنعتها مِن الفخارِ بعد عناء، مشاركتي لمعرضِ الجامعةِ الذي سيُقَامُ في الأيَّامِ القادمة. انتهَتْ مرحلةُ الجفاف التام، استعدادًا لتلوينها، ثُمَّ حرقها. فجأةً توقَّفَتِ المركبةُ سقطَتْ شجرةُ التين مِن يَداي، تناثرَتْ قطعها على أرضيةِ العربة، توَقَّفَ قلبي، وبلغَ تأثري مداهُ، وأنا أجمعُ قِطعَها، عيناي امتلأتْ بالدموعِ، يدٌ امتدتْ؛ لتلتقط معي وصوتٌ يسألُ: أأنتِ بخير؟.

هل هي من أجلِ أمرٍ مُهم اليوم؟

وجزع الشجرة بين أصابعهِ، فقلتُ: «لا..!»

قالَ مبتسمًا «بإمكانكِ تشكيلها مِن جديدٍ.»

التقتْ أَعْيُنُنَا؛ لم أستطعْ النُّطْقَ، أومأتُ برأسي مُعْنِيةَ الإِيجاب.. لا

أدري ماذا حدثَ، قلبي كَمِطْرَقَةٍ في يدِ طفلٍ لاهٍ، لم ينهه صياح أمهِ، وأخوتهِ للتوقف بل زادَ مِن قوةِ الطرق، نظرَتُ إليه التقَتْ عينهِ بي قائلة: «بإمكانك صنعها مِن جديدِ». وصلتُ الطريقَ المؤدي للكُلِّيّة، ترَجَّلْتُ ألملمُ قِطَعَ فخاري، وقلبي.. أُحادثُ نفسي ماذا بي، تخصصي الأساسي الرسم، تينةٌ صنعتها بغير اِحترافِيَّة، تصنعُ بِي كُلَّ هذا؟ سمعَتُ صوتًا خلفي، وجدتُهُ جامعُ قطعي قائلًا: «وجدتُها..!» مادًّا أحدِ فروعِ تينتي، تناولْتُهَا وكُلِّي ارتباكْ. إحدى صديقاتي أنقذَتْني مِن الارتباك، حيَّتهُ سألتْني، مددْتُ لها بالقطعِ، قصَّ عليها ما حدثَ، وأردفَ حديثهُ بأنَّه يثقُ بأنِّي سأجيدُ صنعَها مرَّة أخرى، وانصرف. سألتْني: «مَنْ هو؟» هززْتُ رأسي بعدم معرفتي له، سألتْنِي: «ترغبين في رؤيتهِ؟» صمتُ! «أندعوهُ للمعرضِ؟» أجبتُ مسرعة؟ بنعم.. استوقفتْهُ قائلةً: «لدينا معرضٌ بعد أسبوعٍ، هل ترغب برؤيةِ تينتها مُخْضَرَّة مِن جديدٍ؟»

ابتسم وقالَ: نعم

قالَتْ له: صديقتي أولًا اسمها طل التَّاج ثم رقم هاتفكْ؛ لنعلمَك بالمكانِ، حفظتهُ في هاتفها بعد انصرافهِ، قالَتْ: «أرى حبًّا فِي سماواتِ كُليتنا..» عانقتْنِي مبتهجةً.

(٢)

أنا منير من جمعت قطع الفخار في الجزء السابق؛ كنت في طريقي إلي عملي بشعبي أمدرمان. الآن لي مكانُ عملٍ خاصٍ بي يكفينا أنا وأمي ورضوان أخي الذي يدرسُ الآن فِي كُلِيَّةِ الطب. أمي الجميلة ليلها ونهارها خلفَ ماكينةُ الخياطةِ انحنى ظهرُهَا وضعفِ بصرُهَا.. حديثي اليومي لها أنْ لا تجهدْ نفسَها؛ أصبحَ لدينا ما يكفينا،

تجيبني بالدعاءِ لي ورضاها عني صوتُ مكنتها يكملُ ابتهالات دعائها. توقفَتْ المركبةُ العامةِ فجأةً، تناثرَتْ قطعٌ مِن الفخار على الأرضِ أمامي، ويدُ فتاةٍ مرتعشة تلتقطُ الأجزاء. القطعُ تدلُّ على أَنَّها شجرةٌ مصنوعةٌ مِن الفخارِ، سقطَتْ مِن بَيْن يديها عند الوقوف المفاجئ للمركبةِ. سمعْتُ صوتَ تأثرها مددْتُ لها القطعة التي كانَتْ بقربي، رأيتُ عينيها دامعتين، توقفَ قلبي لرؤيتها. سألتها: «هل هي لأمر هام اليوم ؟» مشيرًا لبقايا الشجرة

أجابَتْ برأسها: لا.

قلتُ لها: «بإِمكانك صنعها مِن جديدٍ.»

ظهرَ علي وجهها طيفُ ابتسامةٍ أظهرَتْ غمازةً علي خدِّها، قلبي ظلَّ يرفضُ مواصلة عملِه، تنفّسْتُ ببطءٍ، اختنقَتْ أنفاسي داخل صدري، ماذا أصابني؟. توقفَتْ المركبةُ، تحركْتُ نحو بوابةِ النزول، بخطواتٍ صغيرة، كأنَّها تخشي سقوطُ ما تبقى مِنها دون الالتفاتِ للخلفِ، سقطَتْ قطعةٌ مِنها، لحقتُ بها، رأيتُ أجملَ قِطع الله في الأرضِ، لون الأبنوس وعيون بُنْيّة اللون. قلبي تخلي عن توقفهِ، ليتسارعَ بعنفٍ. أعدتُ عليها مقولتي مرةً أخرى، بأنَّكِ سوف تتمكنين مِن صنعها، ودَّعتهم مسرعًا بسرعةِ خفقاتِ قلبي الفجائي. لحقَتْ بي صديقتها قائلةً: لدينا معرضٌ بعد أسبوع إذا كنتَ ترغبُ في مشاهدةِ تينتها الجديدة؟. قلتُ لها سأحضر، طلبَتْ مِنّي رقم هاتفي لتحديدِ المكان، وأعلمتني باسمها الذي نقش على قلبي (طل التاج) .

كانَ الأسبوعُ الأطولَ، شاهدْتُ فيه شريطَ حياتي، امتداد ذاكرتي منذ أنْ قلْتُ لأمي سأعملُ، وأدرس! ما تعملهُ أُمّي مِن مشغولاتٍ يدويَّة ثمنها لا يكفينا. مغادرة أبي لنا، اختيار بيتِه الأوَّل، ومحوهِ

لنا مِن حياتهِ؛ اشترى لأُمِّي نصفَ بيتٍ، وغادر لخارجِ السودانِ، رضوان لا يتذكَّرُ ملامحَهُ. نعيشُ في أسرةٍ لا يُذكر فيها أبدًا كلمة أّب. لاحظ رضوان ما بِيّ مِن شرودٍ؛ فقصصتُ عليهِ ما حدث مع قطعِ الفخارِ وقلبي، سألني هل تحبُّ أنْ تذهبَ؟. قلتُ: «لا أعلم..» قالَ بحزمٍ: «أنت تعلمُ؛ سأذهبُ معك..»

أنا رضوان شقيق منير سأروي لكم الآن؛ ابتسمَ منير مُعْلِنًا الإيجاب عندما قلت له أنت تعلم، ظللنا معًا نتنصتُ الهاتف؛ كُلَّمَا رنَّ، اتصلَتْ علينا في منتصفِ الأسبوع، أخي لم أرهُ يومًا يتحدَّثُ لفتاةٍ، لدرجة أنَّنِي لم أتوقع أنَّهُ سيقعُ في الحبِ يومًا، الوحيدة التي كانَ يلاعبُها، ويقسمُ الحلوى بيننا، رفيقة طفولتي التي تسكنُ معنا في الحي، كانَتْ قصيرةً جِدًّا، كثيرة الحركةِ، كانَ يطلقُ عليها لقب كرةُ البنغ بنغ ضاحكًا، لحركتها الدائبة أثناء لعبنا معًا. سأذهبُ معهُ لأنِّي أدركُ مدى تردُّدِهُ وانعدامِ خبرتهُ، لم أره غير في عملهِ، في ورشةِ السياراتِ، منذ أنْ كانَ طفلاً، إلى أن أصبحَ لهُ ورشة صغيرة، ينفقُ علينا أنا وأمي كل ما يكسبهُ في يومهُ، أجد مصروفي في مكانهِ المحدد كل يومٍ، لم يخلفهُ أبداً يزيدهُ لي قبل أن أتكلم، أجدُ أجودُ أنواعَ الدفاتر في طاولتي، طالبُ الطبِ الذي يمتلك جميع المراجع يقول لي مررتُ بالمكتبةِ، فوجدَتُ هذا، هي غالية الثمن أخي، يمكنني أنْ أنسخَ مِن زملائي المهم مِن الصفحاتِ، فيقولُ لي: «ولِمَ لا ينسخُ زملاؤك منك «

«تفضل أخي..»

«ما هذا يا رضوان؟»

« قميص وبنطال متشابهان، اختلافٌ طفيفٌ في درجاتِ اللونِ،

من أجلِ خاطرِ زوجة أخي المستقبَلِيَّة.»

صمتَ منير ، لا أدري راقَ لهُ ما قُلتُ، أو صمتُ خوفًا مِمَّا قلتُ؟.

« مِن أين لكَ بالمالِ؟»

«لي أربعة أيَّام أعملُ في صيدليةٍ مساءً»

«هل درستَ الصيدلة؟»

«نعم..!»

أحضرَ لي أخي خمسة كتبٍ عنها، وأشرت إلى مكتبتِي مضيفًا، وبإمكاني أنْ أصبحَ أشياءَ عديدة، بفضلِ أخٍ، لا يدخلُ البيتَ إِلَّا وفي يدهِ كتابٌ لي.

«اهتم بدراستِكَ يا رضوان.»

«حاضِر يا سيِّدي إِنَّها هدية لكَ. أريدُ أن أرى مَن جعلتْ أخي ساهِمًا سعيدًا؛ ابتسمَ ابتسامةً لم أُشهدها علي وجههِ مِن قبل، لا بُدَّ أنَّها حسناء عالية الجمال والأخلاق، ثمار دعاء أمي لكَ ليل نهار، إِنْ لم تأتِ بذلكَ سأصبحُ ملحداً» ضربني مازحاً علي كتفي ضربتهُ المعتادةَ التي تصاحبها مقولتهُ ، الفتى الشقي أُمِّي ترمقُنا بعينِ قنَّاص الخفايا، سألتْني «ماذا بك أراكَ هادئًا، يقلقُني هدوءك غير المعهودِ؟»

«فقط أكثري مِن دعائِكِ المعتاد لمنيرك، ودعكِ مِن القلقِ بسبب هدوئي.»

تأمَّلْتُ وجهي لبرهةٍ؛ لتلقى كلماتها

«كُفَّ عنا مصائِبك، أخوكَ أهلكهُ الإرهاقَ والتعبَ..»

أُمِّي تمارسُ هواياتها معي؛ كم عدد المصائِبُ التي أتَيتُ بها منذ ميلادي، لا أذكرُ فقط لعل عشراتُ الصراعاتِ في المدرسةِ والحي، صدقًا رُبَّمَا أكثر مِن العشراتِ عندما أُصابَ، أتمنى أنْ أجدَ أخي بالمنزلِ يعتني بإصابتي دون توبيخي، يحبُّ سماعَ قِصَّة الإصابة التي أقصها عليه بإضافاتٍ هائلة بطلها في الحالتين ضاربًا، أو مضروبًا أنا، ينعتني بالفارس الشقي مبتسمًا. مصيبتي إذا كانت أُمِّي بالمنزل ما يحدث لا يُسرَد، ولا يُقَصُّ، امتنعُ بعده لفترةٍ طويلة مِن الدخول في نقاش دعك مِن شجار. أخي لا يرى ما تُسَمِّيه أُمِّي بمصائب يذكرني فقط أن اجعل مغامراتي غير مؤذية لي.»

الخميس الخامسة مساءً طلّ تقف بانتظارنا هي وصديقتها في المكان الذي حُدِّدَ من قبل، صافحتُها؛ احمرار وجهها أكدَّ لي أنَّها تحبُّ أخي.. مُنير لم يدخل جامعة مِن قبل، أصابني كدرٌ بدلًا عن الفرح أخي الذي أكمل تعليمة الأساسي ولم يزد علية بسببي كما يُقَال!. وقفنا أمام تينتها الجديدة، التقت عيناهما بعد تردُّدٍ سألها أخي «أيُّهما كانت الأجمل؟» أشارتْ إليها، وكأنَّ نظراتها تشير إلى أخي.

(٣)

الشقيقان كانا لافتين للنظر، منير يرتدي بنطالَ وقميصًا متقاربين في اللون كفارسٍ قادم من دنيا الخيال، رضوان يقاربه في الطول ملامحهم متقاربة جِدًّا. منير يكسوه وقارٌ وهدوءٌ. رضوان مشاغب خلق جو غطَّى على ارتباكي وارتباك أخيه؟ تينتي هذه المرة

لم أصنعها بالمقاييس كما فعلتُها مِن قبل تشكَّلت دون عناء رأيتُه فِي كُلِّ جزءٍ منها، جزعها الضخم ذي اللحاء النجميّ، وتلوين الأوراق كان رفيقي منذ مزج طينها وتشكيلها. سألني «أيُّهما كانت الأجمل» أشرت إليها، وقلبي يقول لتلك التي تحطَّمت في أرضية المركبة شكراً لتحطمك لأجلي. عيناه تتنقل بين اللوحات لتستقر في شجرة التين خاصتي التي أظن أنّي رأيتُها تتوهج عندما ينظر إليها.

منير ورضوان يزوراني معًا، مرَّة واحدة أو اثنتين، كُنَّا أنا ومنير لوحدنا، وعندها نقضي لحظاتنا في صمت وتبسم فقط، رضوان يمتصُّ جميع الارتباك بمرحه وقَفَشَاتِهِ ومغامراتِه الجامِعِيَّة. لسانه الذي لا يصمت، استغرب لسلام أخيه شفاهةً، وسؤاله عن أحوالي: «ما هذا؛ أهو هكذا معكِ؟»

«نعم..»

«قال إنَّه لا يصافح الجميلات..»

ضحكَ رضوان، وقال: «رفيقتي أعانقُها..»

تهذَّب رضوان

سأفعل إنْ صافحتها يدًا يُمْنَى بيدًا يُمْنَى أخرى هذا كُلّ ما في الأمر..»

وكأَنِّي أتحدَّثُ إلى جمادات، أيقنتُ ألَّا فائدة مِن محاولاتي.

أنا وأخي أصبحنا أقرب مِن ذي قبل، بدأ في بناء الغرفة، البيت.. عَمَّتْهُ سعادةٌ غامرة! منير بَيْنَ العمل الجاد، وأحاديث طلّ، إكسير الروحِ، نبض الحياةِ، واصلتُ العملَ في الصيدلية لمنتصف الليل

فلا رقيب، أجمعُ فِي المال محاولًا مساعدة مَن ربَّاني، بالإضافة للدروس التي أعطيها لزملائي مقابل مبالغ زهيدة، كانتْ تساعدني.. لا أريدُ لابتسامة أخي أنْ تُحْجَبَ عن ناظري مرَّةً أخرى. سألتُه متى تاريخ الزواج؟ قال بعد عامٍ ونصف إنْ شاء الله، فقلت له تعلنان الخطوبة، قال طل قالتْ لا أريد أنْ نكملَ إجراء الزواج فحسب.. سأحسدُك على هذه الطلّ يا فتى وضحكنا. اشتريتُ دبلتين فَضَّة؛ دعوتُ طل وأخي بمناسبة نجاحي بامتياز. قال: « نحن مَن ندعوك أم أنت؟» حجزتُ طاولة فِي عوَّامة فِي مكانٍ أُسَرِيّ مُطِلّ على النيل، انتظرتُهم عندها. منير يعاملُها بخوفٍ وحب كما كان يعاملني فِي صغري، أسعدتْنِي هالة الحبِّ والأمان حولهم؛ أخرجتُ الخاتمين أمامهما، وقلت: «أعلنكما خطيبًا وخطيبةً» كانت دهشتهما لا تُوصَف، وَجَمَا ولم يتحرَّك أحدٌ منهما، فقلتُ

«أخي يوجد في يدها اليمنى بنصر؛ عليك وضعه فيه، وأنتِ أيضًا يوجد في يده بنصرٌ مِعْوَّج عليك وضعه فيه..»

وجدتُ نفسي الضاحك الوحيد، ظلَّا واجمين، والخجل والارتباك يقتلهما،

قلتُ: «إنْ لم تفعل أقسم؛ سأضعه أنا في يدها، وأُقَبِلُّها فِي فمِهَا»

فإذا بركلةٍ تهزُّ الطاولة؛ لتصيب قدمي، ضحكتْ طلّ بصوتٍ خافت، صوت ضحكتها لم نسمعه مِنها مِن قبل، نزل علي قلبي كنسمة الصبح الأولى، هممْتُ لقلب أخي حديث العهد بالحبِّ هذه الطل تجتاح كُلَّ الدواخل، وتحتلُّ المشاعر .

وضَع منير الخاتم في بنصري كأنَّها مائة عام، تجنَّب أنْ يمسَّ

إصبعي، وحين حدث؛ توقَّفت أنفاسي، وتجمَّدتْ أطرافي في مكانها.. حاولتُ أنْ التقطَ الخاتم، ارتجفتْ يدي، وسقط.. هنا قال رضوان: «يجب أنْ يُصنَع لكم تمثال، ويُسَمَّى إِنَّهم على الفطرة»، تمالكتُ نفسي وضعت الخاتم فِي يده ببطءٍ صعقَنِي كبرقٍ فِي ليلٍ لُجِّيّ، وجهي اكتسي بالحمرةِ، هُنَا صفَّقَ رضوان، وصفَّر مبتهجًا، ثُمَّ قال: «ما رأيكم أنْ أذهبَ لسكن الطلاب، وتتزوجوا فِي غرفتنا إذا طال انتظاركم حتَّى اكتمال التجهيزات؛ سيصهركم العشق ..»

هُنَا تكَلَّم منير بحِدَّة قائلًا «تهذَّبْ» تمالكتُ نفسي وقلتُ أخي لا يخرجُ مِن بيته، وتهذَّب كما قال أخيك. قال: «الآن صِرْتُ تحتَ سلطتين يا لِي مِن مستضعفٍ!» ضحكنا، تناولنا الطعامَ، والنيل كان شاهدًا على ما حدث، يرسلُ نسيمَه مُبتهِجًا كُلّ حينٍ. علمتُ كُلَّ تفاصيل حياتِهِ، وعلم كُلَّ تفاصيل حياتي، كان قلبي على الفطرة، وكان هو أوَّل الساكنين، منير كم أحبك!

سقيفةِ العِنَبِ

(١)

أنا الهادِي، المعز، ومجدي، ثلاثي الصَّف الأوَّل الثانوي يوليو ٢٠٠٣. اجتماع شملنا، محاولاتنا للتذكُر تنحرفُ بنا دومًا لطريقة معرفتنا بمجدي المُتَمَرِّدة. مجدي الطالب الذي يأتي المدرسةَ مع والدته بعربتِها الزرقاء. همسًا كان يُطلَق عليه (ابن والدته) لغرابة التصرُّف، الثانَوِيُّون يعشقون السير على الأقدام، ومغامرات وسائل المواصلات، أو يأتون على دراجاتِهِم الهوائِيَّة والنارِيَّة. تصادفنا في فصل واحد المعز خلف خاله في دراجته النارية، كانا معًا يُشَكِّلان أبطالًا رياضيين لا يُمكنُ للعين أنْ تتجاوزهما. رآني؛ فحيَّانِي كزميلٍ له في الفصل، ومنذ ذلك اليوم أصبحنا معًا.. إذن تحيته وضعتْ النقطة الأولى لمسيرتنا اللانهائية. منزلي يجاور المدرسة، المعز يوصله خاله لمنزلي، وبعدها راجلين معًا إلى المدرسة،

فِي أحد الأيَّام، ونحنُ متجهون نحوها وقفت العربة الزرقاء غادرها مجدي مُسرعًا، تارِكًا والدته، وانضمَّ إلينا، لم يلتفت إليها، لحقتْ به وسلَّمت علينا، وسلَّمته بعض النقود قائلةً: «عُدْ كما ذهبتَ..» وانصرفت. قال الهادِي ستتشرد، ضحكنا جميعًا، كانت الضحكة التي جمعتنا. ولَمْ ترَ مدرستنا العربة الزرقاء مرَّةً أخرى، ولقب مجدي ظلَّ فِي مكانه.

منزل الهادِي الأقرب للمدرسة، لم نذهب يومًا قبل أنْ نأخذَ بعض الوقت فِي منزِلِهِ، تَعَرَّفْنا على أسرته، والده الحاج الخضر مصطفي، صاحب الكلمة المسموعة في الحي، يعاملنا كمعاملته لابنه، نلنا منه نصيبنا مِن الغِلْظَة والعطف، أصبحنا نفهمه جَيِّدًا، إذا ارتفعَ حاجبه الأيسر عند الحديث يعني ذلك تنفيذنا للأمر دون مناقشته. إنْ كان حاجباه في مكانهما؛ فهذا يعني فتح أبواب للنقاش التي اكتشفنا فيما بعد أَنَّها كانت امتحانات لنا؛ للتعَرُّفِ على شخصياتنا، وميولنا، والتعامل معنا على حسب ذلك. لا يخلو شهر دون (نفيرٍ) في حيِّهم، بناء جدار قد سقط، تشجير مدارس الحي، طلاء بعض المنازل، سوق خيرِيّ، نواقص تعاون الحي وترتيبه. الحاج الخضر يُوَزِّعُ علينا المهام حسب قراءته لنا. مجدي يقوم بترتيب المتطلبات وكتابتها، عقله لا ينسي كبيرةً، أو صغيرةً، بالإضافة لحسن خَطِّهِ. الهادي والمعز لجميع الأعمال الشاقة. تَنَمَّرْنا على مجدي، نَصِفُه بابن أُمِّه خبير المراسيل، يضحك قائلًا)الشقاء للمكتوب له الشقاء، أنا خلقت للسهل من المهام). تأخَّرْنا عن الرجوع لمنازلنا يُواجَه بالتأنيب، مخرجنا دومًا أَنَّنَا فِي منزِلِ الهادِي؛ فتهدأ الثورات، الكل يثق في حاج الخضر، ويَكِنُّ له الاحترام. في الصَّفِ الثَّالث اتفقنا على دخول جامعةٍ

واحدة؛ رغم اختلافاتنا، مجدي يعشق الرياضيات، المعز والهادي يجيدان ما يفعلان، فكان القرار التفوق.

لم نتوقع أبدًا أن يصبح المعز صاحب مزرعة للتماسيح، ولا الهادي متخصصًا في علم الاجتماع، وابن أمه يصبح مدير أعمال أبيه.

(٢)

هواتفكم معكم؟؟ ابتدرت أم مجدي حديثها لنا، أجاب ابنها، أمي هل تريدين إجراء اتصال، قالتْ مبتسمة لا ربما أنتم مَن ستحتاجون إليه، أحببتُ التأكد، أرجو منكم مساعدتي في تشييد سقيفة لشجرة العنب، المواد جاهزة، أنتظركم بعد نصف ساعة إذا لم يكن لديكم مانع، قلنا بصوتٍ واحد لا مانع.! غادرتْ مكان جلوسنا تحت شجرة المانجو الظليلة، مكان جلوسنا الدائم في منزل مجدي طيلة الفترة الجامعية. نظرنا لابنها وانفجرنا في وجهه ضاحكين، ابن أمه التي أدركُت نواياه، كلماتها المقصودة خاصة بعد أنْ تأكدت من لوازم الاتصال، تعلمنا أنَّها تعلمُ أنَّ وجودنا اليوم لم يكن كالعادة، كان غطاء الأصدقاء المحكم؛ لتمرير أجندة مجدي الشقِيَّة، حقًّا إنَّك ابن أمك لا يمكنك أن تخفى عنها شيئًا، اعتذر لرفيقاته بقوله عم الهادي توفى الآن،

قتلت عمي ؟وهل لديك عم على قيد الحياة؟

نعم عليك الاستعداد لتلقي التَّعازي على الفقيد.

المعز ضاحكًا الهادي في موقع تندرنا في الجامعة غدًا منظره وهو

يرفع كفيه مُعَزِّيًا في عمة المتوفى منذ سنين منظر لا تُحسَد عليه.

كُلّ ما يرتبط بالهادي والحاج الخضر يقنع ويرضي الجميع. كان الهادي أحرصنا على مستقبلنا؛ مجدي، صاحب التوبيخ الأعظم، يميل للمرح والمشاغبة، لا يغضبُ أبدًا مَهْمَا تَنَمَّرنا عليه قال إنَّ الغلظة التي واجهها مِن الهادي لم يتلقها مِن والديه طوال سنين عمره، فترة الامتحانات دومًا في منزلهم. مقولة مجدي الشهيرة معتقل الامتحانات تحت رحمة الحاج الخضر وابنه. مجدي يجلس للقراءة كأنَّه يجلس في الأشواك بين الفينة والأخرى، يذهب ليتجاذبَ الحديث مع حاج الخضر، قَصَصُه قد تطول، فتكون عتقًا له مِن الدراسة إلى أنْ يفطن حاج الخضر لهدفه فينال نصيبه من محاضرة الاجتهاد. والدته اليوم استخدمت سلطتها الخفية لتحبط خطَّتنا، اتَّصَلَ مُقدِّمًا عذر موت عمي الذي توفي قبل سنوات ونحنُ في غبطة وسرور.

المكان المخصص لصنع السقيفة؛ الأدوات في مكانها أشارت والدة مجدي لعبوة موجودة على طاولة ممتلئة بقوارير زجاجية متوسطة الحجم نظرنا إلى ابنها هز رأسه ساخرًا مِنَّا، وضع بعض ما في العبوة في يديه، غطَّى به يديه جَيِّدًا، ثُمَّ تناول قفاز مخصص لعمليات الزراعة، أدخل يديه فيه، رفعهم أمامنا معلنًا اكتمال الدرسِ، وعلينا التقليد، فعلنا مثله، التفتنا للهادي، ادَّعى الانشغال بما حولنا، همستُ له لن نعمل في (نفير) في منطقتكم بعد الآن بدون خدمة اليدين لقد أهلكنا والدك.. أجابنا ذلك(نفير) وهذا تأديب لِمَن يلهو.. لم نستطع كتم ضحكاتنا، أوقفتها ابتسامة أم مجدي الرقيقة قائلةً تحدَّثوا بما تحبون، ووضعت سماعتيها على أذنيها.

منزل أسرة مجدي عبارة عن بستان فيه شتَّى أنواع الأشجار والأزهار والخضروات، والدة مجدي مراجع مالي، علمنا من مجدي أنَّ إتقانه للتصنيف والترتيب يرجع لوالدته. كان يصحبها في عمل المراجعات والحسابية لبازارات ومولات صديقاتها، لكنها كانت ماهرة جِدًّا في كُلِّ ما يخص الزرع والأرض والاخضرار، وحماية البيئة. تُفَضِّل العمل مِن المنزل كُنَّا نندهش عندما يقولُ لنا مجدي نحن لا نمتلكُ نفايات في منزلنا ،أمي تعيد تدوير أيّ شيءٍ في المنزل. والدة مجدي بجانبنا، أمامها مجموعة مِن الفخار المخصص للزراعة بجميع المقاسات، تصنع خلطة الطمي والرمل، ثم انتقلت للقوارير الزجاجية، أشار المعز إشارة ما هذا؟ صاح مجدي أمي بطريقة (ابن أمه) الفتى المدلل الحقيقي يمازحُ الهادي؛ فهو يعلم لو لم يكن أمامها لنال صفعة مِنه. أخرجتْ إحدى سماعتيها، يسألون ماذا فيها قالت: مكونات وصفة الزراعة الجَيِّدة، أنظروا الإناء زهور متوسط، ملعقة كبيرة من قشر البيض المسحون ناعم مقدار جرعة الكالسيوم. ثلاثة ملاعق من أوراق الأشجار البنية، التي سقطت لوحدها مِن أشجارها تمدُّنا بالنتروجين والكربون، مِلْعَقَة كبيرة من حبات الشَّاي المستحلب للحصول على الحديد، المغنيزيوم، الفوسفات ثلاثة ملاعق من خليط قشر الخضروات والفواكه المفرومة المجففة؛ خاصة قشر الموز للبوتاسيوم. خلطتْ المزيج جَيِّدًا ثُمَّ أتت بقارورةٍ بها ماء لونه بني غامق قليل مِنه صبَّته في إناء الرش، أضافتْ كمِيَّة مِن الماء، ثُمَّ قالتْ رشَّات مِن مستخلص الكمبوست (السماد الطبيعي)المنزلي. تُقَلِّب التربة للتجانس، تترك حتَّى تصل لرطوبة محددة، نقلت إليها زهرة الإنتانا المحبة للشمس،رفعتها فوق الطاولة، انتقلت لوعاء زرع

آخر. همس الهادي «مع تحيات شيف التربة المحترف..» قطعتْ همساتنا قائلة: «فيما بعد اجعلوا حاوية الكمبوست رأسًا على عقب، وأضيفوا ما رشح في الحوض لداخلها، واتركوه مكشوفًا بغير غطاء مِن جديد». التفتنا إلى ابنها ليترجم لنا عبارات والدته اليوم.. مجدي يواصل السخرية العلنِيَّة مِنَّا قال بتهكمٍ: «الجهل يتواجد بيننا..» أشار إلى حاوية متوسطة تحت ظل شجرة الليمون المخضرة، إناء تخمير مخلفات الأشجار، وبقايا الخضروات، بعض نضوج الخليط ينتج كمبوست يكفي حاجة نباتات المنزل.

أكملنا سقيفة والدة مجدي التي كانت من فروع البامبو المستقيمة، خاطبنا الهادي إنها المرة الوحيدة التي لم يصيبنا التعب من فعل عمل جماعي، سنترك أباك لنعمل عند الأمل الربيع التي تعتني بالعاملين. قاطعتنا تحمل في يديها إناء زرع صغير بحجم محيط اليد، شريط ملون يحيط به من المنتصف. أغصان النعناع الخضراء ذات الرائحة الذكية مشرئبه من داخله بفرح وحرية، وعبوة صغيرة من الكمبوست الناضج، هدية والدة مجدي للحاج الخضر، ولأمِّي خرجنا نحمل مزروعاتنا، وإعجابًا بسيِّدة تستحقُ الاحترام.

بعد أقل مِن ساعة لذهاب الهادي، والمعز، واكتمال سقيفة أُمِّي، اتَّصل عليَّ الهادي قائلًا أبي يريدُك. ألقيتُ علي أبيه التحية، قاطعني آمرًا «أطلب مِن السَّيِّدَة والدتك التفضل بزيارتنا يوم الجمعة نريدها لأمر هام، وأنتَ استأذن والديك بقضاء ليلة الخميس معنا..»

أغلق الهاتف دون انتظار ردِّ مِنِّي، أخبرتُ أُمِّي بطلب حاج الخضر،

ابتسمتْ ابتسامةً طفيفةً عذبة، قائلةً «فليكن له ذلك..!» نظرتُ لأمي أعرفها جَيِّدًا لقد أبتلع الطعم الحاج الخضر. أُمِّي تقولُ حاج الخضر رجل لا مثيل له في زماننا، رجلٌ بأخلاق الأرض، ونقاء قطرات المطر. لغةٌ خفية بَيْنَ أُمِّي وحاج الخضر، لغة العطاء والإنجاز، تعكسُ حق المجتمع في عطاء الفرد. اتصلتُ بالهادي، بماذا يريد أنْ يهلكنا والدك، وماذا يريد مِن أُمِّي يوم الجمعة، قال: «لا أدري..!» رويتُ له قِصَّة السقيفة وسلمته هدية والدتك ابتسم ابتسامة لا أدري كنهها، وأصدر أمر بتجمعنا عنده يوم الخميس، قاطعتُه «أيعلم والدك أنَّ أُمِّي فِي عصمة أبي.؟»

«رُبَّما وجد فتوى لذلك، سيتشرَّد والدك، وتصبح تحت سلطتي وسلطة أبي»

«لن نعمل بدون خدمة رعاية اليدين ومعاملتنا بإنسانية»

«قل حديثك هذا للحاج الخضر ولك مني هدية، شاهد قبرك يا ابن أمه المدلل.»

ليلة الخميس بمنزلِ الهادي، وبعد انتهاء يومنا الجامعي وصلنا مساءً. استقبلنا الحاج الخضر بحفاوته المعتادة، وصينية غدائهم الغنية. وضعَها الهادي أمامنا، ظننا أنَّ الحاج سيفتحُ معنا ما يريدُه مِنَّا أثناء الغداء، لكن تحدَّث عن أمرٍ كان يدور بداخله، أو كأنَّه يُحادثُ نفسَهُ بصوتٍ مرتفع..

«الأرضُ هي مرجعية الأشياء، الطبيعةُ تعشقُ الاختلاف والتنوُّع، وتجنحُ كثيرًا للثورات والتمرد، الإنسانُ المتحضر هو مَن سَنَّ سُنَّة التشابه والتقليد وربط الإبداع، والتفوق بما أنجزَهُ الآخرون..

العقل البشريِّ غير محدود التفكير والابتكار؛ إِذا استمَدَّ الدعم والعزيمة من روح خلَّاقة تحادثُ الطبيعة أكثر مِمَّا تحادث البشر. لا يتغيَّرُ المجتمع بالقوانين فقط، يُضْبَطُ بالقانون، التغيير يكون بتغيير الروح؛ فتضئُ الضمير، ينشطُ الجسدَ مُنْدَفِعًا للعمل، مستعينًا بِمَا حوله مِن مُعطَياتٍ يُسَخِّرُها بحكمةٍ وإتقان دون الانتظار لمساعدة الآخرين. الطبيعة وهبتنا كُلَّ الأشياءِ المادِيَّة، والمعنوِيَّة، التصاقنا بها يؤَدِّي بِنا لأسمى غايات الحبِّ والهدوءِ.» لم نرفع رؤوسنا طيلة حديثه عن مائدتنا، اتّخذ الطعام وضعية التهذيب والاستماع مثلنا عندما قال أسمى غايات الحب والهدوء خاتمًا حديثه مع نفسه، أو معنا لا ندري؟! خرجنا بأنَّ اجتماع اليوم من أجل يقين الولاء للطبيعة والأرض..

(٣)

فِي حَيّنا.. حي النقعة ثلاث مساحات فارِغة، قال لنا الحاج الخضر بعد صلاة المغرب اقترحتُ على أهلِ الحَيِّ أنْ نقوم بزراعتها. وزَّعنا الأساسِيَّات، التربة تَكَفَّل بها سكان المربع الرابع والخامس، والدة مجدي ستأتي غدًا؛ لتشرف على نوعية التربة، أنتم الآن ابحثوا في حواسيبكم في هذه الفترة مِن السنة ما هي الخضروات الموسمِيَّة الأنسب، والخضروات الدائمة، كمِيَّة البذور، ومقدار المياه، ونوع الريّ الأفضل، تنقيط أو انسيابي .مجدي أحسب التكلفة الكلية؛ أريد المعلومات مكتملةً صباحًا.. وغادرنا. ما يطلبه حاج الخضر مِن بحوث أكثر مِمَّا تطلبُه مِنَّا الجامعة. أستاذتنا يمنحوننا زمنًا؛ لتسليم البحوث. الحاج الخضر يطلبُ عشرة بحوث، ويعطيك

ساعات، والطريف أنَّنَا لم نتأخرْ يومًا. إحساس الملل لا يتواجد، مجدي وقفشاته، الهادي وسخريته اللاذعة المضحكة، المعز وضحكته المجلجلة التي بمقدار حجمه.

وصلتِ التربة فِي وقتِهَا يومَ صباح الجمعة. سِمَةُ أهل حَيّنا مَن يَتَكَفَّل بفعل أمرٍ؛ يتم في المكان والزمان المحدد، نظام الحاج الخضر أصبح حياة الجميع، وصلتْ والدة مجدي، قُوبِلَتْ مِن أهل الحَيِّ بترحابٍ، عَرَّفَهَا الحاج الخضر بوالدة ابننا مجدي المسؤولة عن التربة ومخلفات الزراعة. فيما بعد أبي وزَّع لها مهامها مثلنا دون مناقشتها قال المعز الحاج الخضر والسيدة أمل الربيع معا منذ الآن سننام واقفين. أَلَا تُوجد منظمات لحقوق الشباب؟ ينفذون فينا نظرية اجعلْ الشابَ مشغولًا؛ يستقم سلوكه؛ لقد استقام حتى شعرنا المُجَعَّد فِي رؤوسنا، ضحكنا، قال مجدي يا ليتني لم أغادر العربة الزرقاء، قال المعز، وهل ترانا ننظمُ الشعر فِي سقيفتك، سقيفة بأعواد البامبو الخضراء مِن أين أتت بها والدتك؟ ستأمرنا المَرَّة القادِمة بقطعها مِن غابات ساجانو في اليابان.. ما رأيكم أنْ نكتبَ قِصَّتَنَا التي عنوانها استنزاف طاقة اليافعين؛ ضحكنا.. اليافع مِنَّا بطول مترين وحجم فيل!

السيدة أمل الربيع، فهمتْ ما يرمي إِليهِ الحاج الخضر؛ أتت مُحَمَّلة بجميع عتادها. تصدر أوامرها لنا، ولشباب الحي مثله أضافت للتربة كل ما يلزم لنمو الخضروات حسب أنواعها، وهي تعطينا معلومات لِمَا بعد الإنبات؛ إذا اصفَرَّت أوراقُ النباتِ، هذا نقص في الحديد؛ يمكنُ أنْ نجدَهُ في بقايا الشاي، تساقطُ الأوراق نقصُ الأكسجين والهيدروجين والكربون، تأخر نمو الأوراق نقصُ

كالسيوم، تساقطُ البراعم الزهرية نقصُ النّحاس، ضعف الساق والفروع نقص الكبريت، همس المعز فِي أُذنِي تحولت من شيف أشجار لدكتور أشجار أمل الربيع.

تَمَّ تجهيز الأرض؛ علينا الانتظار ثلاثة أيَّامٍ مِن أجل تجانسها والوصول لرطوبةٍ مُحدَّدة. وضعنا في يد حاج الخضر معلوماتٍ وافيةً عن أنواع الخضروات لهذه الفترة مِن العام، ومقدار حاجتها للمياه، ودرجة الحرارة، والمتاجر الجَيِّدَة للبذور الخالية مِن الشوائب. المهام وُزِّعَتْ بدِّقةٍ على كل أهلِ الحَيِّ، أطفال، نساء، شباب.. كُلّ مَن يملك مقدرة على العطاء، حاج خليل أكبر أهل الحي سنًّا قال إِنَّه سيؤنسها مساءً وصباحًا، قائلًا الأشجار تحبُّ مَن يُحِبُّها ويحادثها، الخضروات تحب القفشات أكثر مِن الحديث العام. قال مجدي ساخرًا ضاحكًا كعادته أخشي أنْ تصبحَ مهمتنا قول النكات للخضروات، انفجرنا ضاحكين، يا حاج خليل إذا الخضروات تحبُّ القفشات ماذا يحب البرتقال ؟ متسائلا أحد من سكان الحي؛ أجاب الموالح بصورة عامة تحب الأشعار، وأغاني الحسان، وهي تحفظ الجميل أكثر مِن الخضروات. همسنا لأنفسنا هل دخل الخليل إلى التخريف؟.أضاف الخضروات تُسر لواحدة منها لحظة سقاية أو تنظيف تجدها في لحظة قد أفشت الأسرار والحديث للجميع متمايلة مع بعضها البعض تتناقل الأخبار، والأسرار إِذن الخضروات نمَّامة يا حاج خليل. ضحك قائلاً لم اقل ذلك، فقط قلتُ حقائق حدثتْ لِي عند تنظيفها في إحدى المرات بماذا أسررت؟ قال الأسرار طُبِخَت لوجبات الحسان رافعا حاجبيه الأبيضين بدلالٍ ومرح. سأله أحدهم وماذا عن أشجار المانجو والنخيل، قال تحتهم تنام قيلولتك، وتتركُها تحادثُ أحلامك؛ ضَجَّ

الجميعُ بالضحك لأحاديث الخليل، يقينًا بخرفه الجميل.

بعد عدّة أشهر المساحات الفارغة غطَّتها الخضرة الطبيعية، اِتَّضَحَ لنا أنَّ للخضرة ألوانًا عُدَّة لا علاقة لها بدرجات الألوان المعتمدة يرتبط اللون بعمق ونداوة الاخضرار، الأرض الخصبة طبيعيٌّ لون خضرتها، به لمعانٌ مع أشعة الشمس، يخلق لك في انعكاس الماء تباينات ألون أحجار الزمرد العتيق . أصبحت الشوارع التي بقربها شوارع رئيسِيَّة للتجول داخل الحي بطريقة غير إرادية، تجدُ قَدَميك تقفان عندها. أحاديثُ الحَيِّ تغيَّرتْ؛ ازداد ارتفاع الملوخية. القرع يتَّجِهُ نحو الطماطم؛ يجب تغير اتجاهه. مساحة الباذنجان صغيرة، أوراق الرجلة لمعانها تري فيه وجهك. حاجة (السُّرَّة) وضعتْ صُرَّة الكمون الصغيرة على أحد الفروع مُدَعِّيَةً أنَّ عين حاجة (التَّاية)التي قالت ترى وجهك في أوراق الرجلة من لمعانها؛ عينها عين ساحر ستهلكها. استأذنوا صاحب أرض خالية مِن المباني بالقرب منها أنْ يستقلونها لزراعة الخضروات التي تحتاج لدرجاتِ حرارةٍ قليلة، ويجب تغطيتها مِن حرارة الشمس المباشرة وجعل جزءٍ منها حديقة للأزهار الظليّة؛ وافق صاحب الأرض، وتبرَّع بنفقات التربة الأوليّة. اِمتدت مساحات المزرعة لمناطق عُدَّة.

الحصاد كُلِّفَتْ به نساء الحي لحرصهم ومقدرتهم على الاعتناء، شَرَعْنَ بقطف الملوخية فِي حقولها، وتَمَّ توزيعها على أُسَر الحي كفَرْحة حلوى يوم العيد. أُمُّ مجدي كانت بَيْنَ الحضور، قالتْ لها إحدى السيِّدات:

«الملوخية مِن غير فروع الشمار الأخضر لا تكتملُ» ضحكتْ وقالت:

«الجمعة نزرع نبات الشمار الأخضر من أجل خاطرك.»

اِجْتَمَع الحاج خضر بأهلِ الحَيِّ بعد اجتماعات مُطَوَّلة معنا، والسيِّدة والدة مجدي أمل الربيع. نجاح مزرعة الحي خلَّف مجموعة من المخلفات علينا أن نعمل على توفير حاويات تخمير الكمبوست والتَّخَلُّص مِن مُخَلَّفات الخضروات والفواكه والأوراق، أطباق البيض وقشوره، كُلّ نفايات المطبخ التي تصلح للتدوير، وأيّ الحاويات أقل تكلفة، الحديدِيَّة، أم الخشبِيَّة وفتحات التَّهوِيَّة، هل الأنسب جعلها حاويةً كبيرة واحدة في الحي، أَمْ حاويات صغيرة خاصة لِكُلِّ منزلٍ؟ اقترحتْ أمل الربيع أنْ تكونَ حاويات صغيرة لِكُلِّ منزل قبل ذلك يجب أنْ تكونَ داخل المنزل مجموعة مِن الأشجار التي يُستفَاد منها فِي حياتنا المنزلية. مَن لا يمتلك مساحة فِي منزِلهِ يملكُ أواني للزراعة، لاستعمال السَّماد المنتج من الحاويات لها، والمتبقي يتمُّ تعبئته وبيعه فِي الأسواق، يُمكنُنَا فتح نوافذ لبيعِ مُنتَجاتِنَا الإضافِيَّة مِن السماد الطبيعِيّ، بإمكاني كتابة كُتَيِّب لجميع المراحل الصحيحة لإنجاح عمليه السَّماد العضويّ مِن المخلفات النباتِيَّة والحيوانِيَّة. اتفقنا على الحاويات المنزِليَّة الصغيرة على حسب مخلفات المنزل.. اِمْتَدَح الحاج الخضر الفكرة واتفقنا على التنفيذ، المهمة الكبرى على الحاج الخضر الاجتماع بأهل الحَيِّ؛ لعرض الأمر والعمل على أنْ تصبح المنطقة خالِيَة مِن النفايات. أم مجدي أضافت أنَّ في بازار إحدى صديقاتها يوجد أكياس قابلة للتدوير مِن الورق المُقَوَّى وسعف النخيل، نُمَلِّكُها أولًا للأسر؛ لنتجَنَّب وجود الأكياس البلاستيكِيَّة، نوفر البديل لأكياس البلاستيك تدريجيًّا ستترك الأسر استعماله، وتقلُّ نفاياته، ستفيدنا بالأسعار ونحصي لها عدد الأسر الموجودة بالحِيّ، وافقنا على ذلك، تَمَّ ترتيب المراحل بِدِقَّةٍ كبيرة.

أحضر الهادي الشاي، أخرجتْ أمل الربيع مِقْصًّا صغيرًا مِن حقيبتها، قَصَّت فروع مِن نبتةِ النعناع التي أهدتها للحاج الخضر، الذي جعلها تحت رعايته المباشرة. يصبُّ الشَّاي، وتضع داخله أغصان النعناع. حملْنَا أكوابنا، وفروع النعناع تغوصُ فيها، انتبهْنَا إلى أنَّ أمل الربيع تنظرُ للنعناع كأنَّها تبحث عن شيءٍ ما. قطفت بادرات وبراعم حديثة الإنبات، ووضعتها في كوبِ شاي، ومدَّتْه للحاج الخضر قائلةً: «طعمهم أطيب..!» توقَّفَتْ أَعْيُنَنَا على الفروع التي في أكوابنا،.قال المعز لمجدي:

«هل يشربُ والدك الشَّاي ببراعم النعناع؟»

رَدَّ: «أبي يشربه ببراعمه، والأنامل و....» قاطعتْنِي عيونُ المعز والهادي بأنْ لا أكملْ ساخرًا، قومٌ يسألون، ثُمَّ يخافون مِن الإجابات،

قال الهادي:»أتدرون..؟»

نظرنا إليه بانتباهٍ تامٍ، يتأمَّلُ فرع النعناع داخل كوبهِ، حتَّى ظنَنَا أنَّه قد نسي أنَّه قال: «أتدرون..؟!» أدارَ الكوبَ يُمْنَةً ويسرى، ثُمَّ قال:

«على أُمِّ الهادي أنْ تُبْدِي قلقها..»

جرعَةُ الشَّاي التِي فِي أفواهِنا استقرَّتْ فِي رئتينا كُحَّتنا الضاحكة نحاولُ إخراجها بمرحٍ من صدورنا. شربنا باقي أكوابنا، وأحسسنا بضغينة قد حدثتْ بَيْنَ فروع النعناع وبراعمِهِ.

فرقعات الموت

(١)

اللون البيج شريط بعرض أربعة بوصات بالذهبِيّ، والبُنّي فِي منتصف حوائط الغرفة. أهل الحَيِّ ساهموا فِي البناء، أو إهداء مواد البناء، فرحُهم بقرب زواج منير يزداد.. منزلنا في احتفالٍ دائمٍ، أُمِّي وضعتْ الحِنَّاء، صبغتْ شعرَهَا المُبْيَض بالسواد، تحَلَّتْ بقوةٍ، وجمال لم أرهما فيها مِن قَبْل. عندما سألها أهل طَلٍّ عن أبي صرَّحَتْ بثباتٍ صارم أنَّ أباهم خارج السُّودَان، صلاته منقطعة عَنَّا بإمكانكم السؤال عنه في عنوان أسرتِهِ، وأعطتْهُم العنوان الذي لم اسمع به مِن قبل. أهلُ طلّ لم يكترثوا؛ لأنَّ كُلَّ رجال حيينا تقدَّمُوا ليصبحوا آباءً وأعمامًا له ولسيرتِهِ المحمودة جِدًّا، والتي فِي نهايتها قد جعلَ مِنِّي طَبِيبًا. لم تكن رغبتي أردتُ دراسة القانون؛ رُبَّمَا مِن أجل انتزاعِ حقوقٍ تَمَّ تجاهلها، وعكات أُمِّي الصحية، قليلة فِي قلتها. كان منير ينظرُ إِليها، وهي مريضة، ثُمَّ ينظرُ إليَّ، كان

لسان حاله يقولُ:

«لا تسمحُ بمرض أُمِّي هي ما تَبَقَّى لنا يجب عليك ذلك».

درستُ الطب مِن أجلها بتحفيزٍ صارمٍ مِن عينِيّ أخي. سألته: «ماذا كنت تتمنى أنْ تصبحَ..»

قال: «لم أتمنَ يومًا؛ لكن الآن كُلّ ما أتَمَنَّاه أنْ تكون طل بَيْنَ يديّ..»

ضحكتُ، وقلتُ ممازحًا: «لقد ضعنا أنا وأمي.»

قال: «لن يحدثُ هذا أبدًا.»

أثاثُ الغرفة بسيط. ذوق أخي جميلٌ فِي الاختيار، وتصميم الأشياءِ. طل لا تطلبُ شيئًا أبدًا، فقط تبتسم بحياء، لغتُهَا الابتسام أكثرُ مِن الحديث. بجانب أُمِّي تحسُّ أنَّها ابنة لها، شملتْهَا فِي دعائها الدائم لمنير ، والمضاف له أنا أحيانًا. طلبتْ مِنّي أغراضًا مِن السوق، رَنَّ هاتفي كان أخي، هتفتُ ماذا يريد عريسنا الوجيه؟ ضاحكًا أتانِي صوتٌ آخر مرتبِكًا جِدًّا قال منير صُعِقَ بالكهرباء فِي ورشته.. سألتُه جَزِعًا:

«هل هو بخير..»

قال: «تُوفِّي..

المنزلُ امتلأَ بالصراخِ، والعيون الباكية. توقَّفَتِ العربةُ تحملُ جسدَ أخي.. غُرْفة زواجه أصبحتْ غُرْفَة حنوطه، ورائحة قبره.. لا أدري غسلتُه بالماءِ، أو بدموعي.. خالِي أبعدَنِي. جلستُ على الأرض

بجانبِ قدميه. قدماه مسجيتان أمامِي بيضاء، كُنَّا نُضَاحِكُه لن تصبح الحناء سوداء لشقائهما، والقدر يعلمُ أنَّه لن تضعَ فيهما الحناء أبدًا. أُمِّي صراخها لا يتَوَقَّف، تدفنُ رأسَها فِي صدرِي كطفلٍ صغيرٍ، لم يكن حزن أَلَمٍ يُمَزِّقُها، ويُمَزِّقُنِي.. سقطتْ مغشيًّا عليها في سريرها طيلة أَيَّام العزاء دموعها، هي التي تُعْلِمُنَا أنَّها على قيد الحياة، غذاؤها المحاليل الوريدِيّة. وقعتْ عيناي علي طلّ فِي اليوم الثالث، أسرعتْ نحوِي، ارتجافُها أوقف نبضي.. معها بكيتُ أخي، أبي الذي ربَّاني، شريك عطري، وهواء غرفتي.. بكيتُ بِكُلِّ قُوَّةٍ حُبِّي له، نزعني رفاقي مِن بَيْنَ يديها، وهي قابضة بمقدار أَلمِهَا عليَّ، آثار يديها ما زالت على جسدِي لم أَبْكِ بعدها.. أتلقَّى العزاء نهارًا وليلًا، احتضنُ وحدتِي ودموعي.

(٢)

نُقْطَةُ ماءٍ فِي الزيت ملأتِ المنزلَ بالفرقعاتِ، تبقَّى لمراسيم العُرْسِ أحد عشر يومًا. أُمِّي وأهلي يجتمعون كُلَّ يومٍ؛ لإنجازِ مُتَطَلَّبٍ مِن أساسِيَّات الزواج اليوم يُصنَع نوعين مِن خلطات الزيوت الطبيعية، خُمْرَة الزيت للجسم، ودِهْن (الكركار) للشعر والدخان، كُنَّ ينقطن نقاط الماء؛ للتأكُد مِن نضوجِهِ، إذا ارتفع صوتها كنتُ أستمعُ إليها تضجُّ فِي ثورةٍ، ثُمَّ تهدأُ بتناسقٍ منساب. قطعَ صوتُ صراخ؛ راحة الانسياب خالتي مشاعر الهاتف بيدها تصرخُ بخوفٍ، تَتَّجِهُ نحوي صائحة منير مات.. عن أيّ منير تتحدثين؟ ملامح وجهي تسألها،عانقتْنِي باكيةً، سقطتُ مِن بَيْنَ يديها. أفقْتُ فِي اليوم الثَّانِي فرقعات الزيت تملأُ رأسي، أُثَبِّتُه بكلتا يداي، عيناي امتنعتْ عنِ الدموعِ. تَمَّ صفعي مرَّات، ومرات فِي

كُلِّ صفعة يعلو صوتُ الفرقعاتِ مُكَذِّبًا لم أنضجْ بعد، لم يمتْ منير حياة طل بعد.. حملونِي أشلاءً لمنزلِ أسرته، وهم ناصحون ومراهنون على رؤيتي لجموعِ النَّاس وأُمَّه ستعصمُنِي مِن الجنون. التفوا حولِي معانقين أصواتَ بكائهم، عَلَتْ على الفرقعات، أقفُ وسطهم كتمثالٍ خلقته الطبيعة حين دهشةٍ، تمثال امرأةٍ، بقايا الدخان تلتصقُ بها رائحة أقنعة وجهها وشعرها، تُعَبِّقُ أنوفَ المعزين، منحوتة لعروس حاكَ القدرُ مؤامرةَ أنْ تقفَ وحيدةً بَيْنَ الجموعِ. وقعتْ عيناي على رضوان الفرقعات تزمجرُ فِي رأسي، أسرعتْ خطاي إِليه، بكيتُ بَيْنَ يديه بكاءً عالِيًا عالِيًا، قابلُه هدوء تام للفرقعات داخل رأسي .

أُمِّي جمعتْ جميع الأشياء التي لها علاقة بالزواج، لا أدري أين ذهبتْ بها تَظُنُّ أنَّ رؤيتهم أمامِي هي سبب حزني وضعفِي. أُمِّي إنِّي أراهُ فِي كُلِّ شيءٍ، ابتسامته لي، أسمعُ صوتَهُ الممتلئ بحنو أحبِّك طل! ليس بي حزن فقط، أنا يقتلُني الشوق إليه، وإلى محادثاته التي فِي وقتِهَا يعلو نبضي، وأنا بالقرب منه رائحة عطره أجدها فِي كُلِّ شهيقٍ تخرجُ كما هي مِن صدري؛ لتسكنَ غرفتي الخاوية، أفتقدُ مشاغبات رضوان حولنا مُصِرًّا أنْ نُسَمِّي طفلنا الأَوَّل على اسمه، وجِداله بصوتٍ مازح مع أخيه.. الشَّوقُ يقتلُنِي وقلبي يؤلمني جِدًّا أمِّي .

امتلأتْ غرفتي بالألوان والأوراق، الكُلّ: طل ارسمي مِن جديد؛ سيريحُك الرسم ماذا أرسم ندبة علي يد العشق تسكن قبر،

حائط أمانٍ تلاشي في تصريفِ قَدَرٍ؟

أَمْ أرسمُ صدرًا واسعًا لا آثار لِي فيه ولا بقايا عطر، أرسمُ قصصًا

بلا أفـواهٍ، ليلًا مضـاءةً أنـوارُه، ولـن تُطْفَـأ حيـن مِـزاح.. مـاذا أُسَـمِّي اللوحـات؛ حنـانٌ مفقـودٌ، عطـرٌ برائحـة الحنـوط، أمْ طـل يسـقط حيـثُ لا وجـود لأرضٍ؟.

(٣)

أشياءٌ مبعثرةٌ، صوتُ أُمِّي ارتفعَ بالبكاءِ. أُمُّ طَل أتتْنا بِكُلِّ ماله صلة بمنير والزواج، حملْتُهَا مِن أُمِّي الباكية إلى الغرفة الجديدة، وجدتُ بعضَ الأشياء التي اشتراها منير، وطل معًا. كنتُ معهم كانا على الفطرة فِي كُلِّ ما له علاقة بالحبِّ. وجهاهما يحملان نظرة الارتباك والخوف إنْ مَسَّ سهوًا جزءً مِن جسدها. عندما أحاولُ الانسحاب يهمسُ لي «لا تتركني مع هذا الجمال وحيدًا»

قلتُ له: «ماذا ستفعلُ بعد الزواج..»

«سأضربُكَ إذا اقتربتْ أقل من كيلومتر»

«إِذن تبقَّتْ لِي أَيَّام قليله فِي بيتِ أمِّي.»

أين أنت الآن يا أخي؟!

جمعْتُ ما تذَكَّرْتُ مِن الأشياء التي اشتروها معًا بِحُبٍّ وفرحٍ، وضعتُها فِي صندوقٍ متوسطٍ، ذهبتُ بها لمنزل طل أدخلتْنِي شقيقتُها بخوفٍ، وقالت: أسرع مِن فضلك وجدتُها فِي غُرفة خالية مِن الأثاث تلتحفُ الأرض، حوائط الغرفة مرسومة كُلّها. طل رؤيتها قاتلة، وضعته أرضًا، كانت تكتبُ سالتْ دمعة مِن عينيها وعينيّ. نزعتْ من مفكرتها الورقة المكتوب فيها مِن بَيْنَ أخواتها، ومدَّتْها لي

شقيقتُها، طلبتْ مِنّي الخروج، تخشى عليَّ مِمَّا سمعتُه مِن أخيها، وقرارهم بقطع ما يربطُنا بهم تمامًا، وافقتهم الرأي، وخرجتُ فِي يدي ما أُنْتُزِعَ مِن مُفَكِّرتِهَا، بعد أنْ كتبتُ آخر كلمتين فيه في حضوري فتحتُها؛ لأجِدَ:

تَشَظَى قلبي..

ثارتْ دماؤه فِي كُلِّ أرجائي

تَهْتُفُ:

يا دموعَ العينِ اِحْتَجِبي؛

بكاءُ اليومَ لَنْ يُجْدِي..

وابلُ العينين لَنْ يُشْفِي

مصابَ القلب والكَبِدِ

أَتَبْكِي؟!

يُتْمَك الأبدِيّ

أَتَبْكِي حياةً زُيِّنَتْ أَمَل

وهي تضمرُ الغَدْرِ؟

أتبكي وعدكَ إِيَّاه

بأنَّ ميلادَكَ الحُبِّ.

عيناك لن ترى أَلَمًا،

روحك نَبْتها فرحًا
طريقك كُلّه ألَقًا
يا حبَّ روحي الحق
كُنْ بأمانٍ يا سَكَنِي
أَتبْكِي الآن..
وابتسامته تحيط بك
تسألُكَ أيْنَ أنا؟
أوحيدًا أنا!
أتَبْكِي كلماته الجَزِعَة
تسألُك..
لماذا أنا
أتبكي صوته في أذنيك عشقي أنا
أتَبْكِي خواءَ أنفاسِكَ،
وأكوانًا رسمتَ بيوتها
بأزهار ضحكاتِكَ،
اَبْكِي اليومَ يا طلّ
فنورُ عينيك
بعيد عنك يسكن القبر . وقلتُ أعلل نفسي، ونور قلب أخيه يا عشق أخي!

متاهةُ روحٍ

طلُّ التاجِ:

لا أدري لِمِ أكتبُ إليك، لِمَ أصطافُ فِي ألمي الجامح الذي يمَزِّقُ داخلي وأنا في آخر ساعاتي، قبل مغادرتي مدينة أمدرمان إلى قريةِ الرمَّاش. خطاب تعيني بها طبيبًا عمومِيًّا قد تمَّ؛ سعيدٌ بهذا.. سمعتُ أنّها قريةٌ حسناء، لكن مكائدَ الحياةِ التي لم يرقْ لها ابتهاجي؛ تعلن كُرهَها لي، لكُلِّ ما يسعدني. منذ وُلِدتُ بدأتْ الدنيا في نَسْجِ الحبِّ والكراهية في داخلي.. أعتذرُ مقدَّمًا لما سوف يحدثُ أمامك الآن؛ يقيني أنَّكِ تعانين تباريحَ موت أخي، تصارعين الآلام، وأنا أقودك لمتاهات روحي بما ستخرجه براكين دواخلي من اضطراب. لم أحب منير، ولن أترَحَّم عليه الآن. أبدًا لن أنافقه بالدعاءِ في هذه اللحظة، لا أكنُّ له أي نوعٍ مِن مشاعرِ التسامح، الأخوة، والحبِّ، أحببتُه أعوامًا معدودة في بدايةِ عمري، ولحظات قلائل طيلة سنواتي فِي ظله. بجانبه، أو ذاته أحببتُه عندما كان أخي الأب مجيبًا لطلباتي حَلْواي، لُعَبي، حمايتي، حمله لي علي

ظهره، اصطياده للطيور مِن أجلي، واهتمامه بملابسي. كنتُ صاحبَ أجمل هندامٍ مدرسي، لم يترك لأمي أيَّ شيءٍ مِن أمري، كان أبي أخي الذي أحبُّ.. إلى أنْ أحسستُ؛ رغم كل الاهتمام هذا أنني غير موجودٍ، لا أحد يعرفني، لا أحد يسألُ عنّي ولا أم تدعو ولا أب لي. انتبهتُ لعدم دعاء أمي لي منذ صغري، وقد أخبرتُها بذلك بمرحٍ ذات مرةٍ، مرحٌ تمثيلي لا حقيقة فيه. من قبل كنتُ ادّعي عدم اكتراثي. دعاء أمي لمنير صنع أوَّل سُلّمة في كره عزيزي أخي. هي تُقبِلُّني على رأسي وتقول لي الله يحفظكم. لم تفردني بدعاءٍ أبدًا ليلها وضحاه تخصُّ أخي بالثناء، بالدعاء، والرضا، والتذكير المتواصل بشقائه مِن أجلنا، وعدم إكمال تعليمه؛ لأُكملَ تعليمي أنا.

خرج أخي ذات يوم قلتُ آخذُ نصيبي مِن حبِّ أمي في غيابه، وجدتُها على مكنتها تخيط، شاحبة، سألتُها عن حالها، وأن تحكي لي عن أبي الذي على قيد الحياة، ولم يرني. سبقتْ دموعُها كلماتها، حبها لأبي، الذي وقع حزنًا وشقاءً علي عاتق أخي، طفولته العاملة، وشبابه الضائع. تلقي اللوم على نفسها وتبكي على أخي. سألتُها أريد أن ألتقي بأبي قالتْ «ماذا تريد منه؛ كلنا نعمل لأجلك؛ لتتفوق تصبح طبيبًا يُشار إليه.. نجاحُك يعني نجاح أخيك! يواسيه في تركه للمدرسة، وحياته الطبيعية من أجلك.» صرختُ «لم أطلبْ مِنه ذلك؛ لا تحمليني سوء اختيارك وفشلك، ألا يعني لك شيئًا أنني لم أقل كلمة أبي لأحد، لا أعرفُ ملامحه، تركتِ أخي يتحملُ مسؤوليتي، واليوم تقولين ترك حياته مِن أجلي.. لماذا لم تتركيني أعمل مثله وتنتهي مسؤوليتك تجاهي، أم لتجعلي لك ابنين، ابنٌ مؤثر بحياته ينال الشكر والثناء والدعاء، وآخر عليه الصمتَ

والنجاح، وتحقيق أماني حياة ابنك، التي أفناها مِن أجله.

خرجتُ مكسورَ القلبِ، هائمًا على وجهي، أعادني لدنيا الحقيقة صوتُ أهل الحي الذي أسكنه طيلة مسيري في الحي، وأنا أتَرَصَّدُ أقوالهم التي تزيدُ حنقي وألمي، وتزيد من مساحات تهميشي، مجمعين على تحيةٍ واحدة، رضوان كيف منير؟ مرحبًا رضوان كيف أخيك ؟ طبيبنا كيف حال أخيك؟ الشخص الذي تفرَّد بتحيةٍ تخصُّني (عم علي) أتدرى ماذا يقول أخ (الهمام) كيفك يا ابني؟ يجب أن يقترنَ اسمي معه من الذي أمامهم أنا أمْ أخي؟ خالة آمنة عند بابِ المدرسةِ، تختتمُ كلَّ شيءٍ في تلخيص بسيط: «رضوان كيف والدتك وأخيك؛ شقيقك طول عمرك لا يمكنك أن تعطيه حقه ترك حياته من أجلك» مَن قال إنَّه تركَ حياته، إنَّه يرى حياته بفخرٍ في نجاحي، ولا يعلم أنَّي أعيشُ حياته.. ما أنا سوي لا شيء، الكونُ يتمحورُ حوله فقط، أسماه المدعو أبي منير لكي يخفي بهالته من حوله وما أنا سوى التابع الحامد الشاكر.

طل هل تذكرين حبيبتي التي كان يُطلَق عليها كرة البنغ بونغ، كانت تحبني، وتعشق أخي، عرفت ذلك في اليوم الذي طلبتُ منه أن نعيشَ كإخوةٍ طبيعيين سألني كيف؟ أخبرتُه لا تعطني أشياءك، اجعلني أغادر الغرفة، اخفي عني عطرك، لِمَ لا نصير مثل أبناء جارنا المبارك؟! هل تذكرتَ عندما نام عندنا ابنه النذير؛ لأنَّ أخاه أغلق مِنه الباب ليلًا، متوعدًا أنْ يكملَ الضربَ غدًا، نام معنا مبتهجًا، وعندما سألناه ماذا فعلتَ، قال «طلب مني أن أحضرَ له ملابسه مِن المغسلة البخارِيَّة، وعندما سألني أين الملابس؛ قلتُ له وضعتُها لك بأمان داخل الحمام، وجدها في مغطس الماء الممتلئ.

قلتُ له ما رأيك، ضحك بمرحٍ لم عهده وقال أوافق، نمنا على هذا الاتفاق الذي ظننْتُ أنَّه سيسعدنا غدًا. صحوت على صوتِ أمي، تأخرت عن الجامعة رضوان.. وجدت الشمس قد ارتفعتْ قلتُ لها منير لم يوقظني كشف عن غطاء وجهه وغمز لي بعينه» تذكرتُ اتفاقنا كان أوَّل صباح أحسُّ فيه بالفرح.. إنه أخي الطبيعي، ارتديت على عجلٍ، والتفتُ إليه ضاحكًا، وقلتُ له نقودي لا تدخل في هذا الاتفاق ضحك بصوت مرتفع وقال مصاريفك في مكانها. وأنا أهمُّ بالخروجِ قال لي قميصك من منتصف ظهرك متسخ هل هذا زيت والدتك المعتق؟ يعلمُ كرهي له، وذكراه معي منذ طفولتي.. أخرجْتُ قميصي مسرعًا لأراه، وفي بالي محاضرتي التي ذهب نصفها، لم أجدْ شيئًا، نظرتُ له.. قال: أخوك الطبيعي، وانفجر ضاحكًا، حملتُ حقيبتي وضربته بها، تكوّر أمامي كطفلٍ سعيد، واصلتُ ضربي له، وأنا أضحكُ غيظًا. لم أفق مِن ذلك إلا بصوتِ أمي «رضوان ماذا تفعل» التفتُ لها فصفعتني، فقط رأتْ ضربي له، أَلَمْ تسمع ضحكاتنا؟ أو ترى ابتهاجنا؟! قال: لها أمي نحنُ نمرحُ. قالت: يضربُك وأنتَ مَنْ رَبَّيْتَه؟!

خرجتُ من المنزل مسرعًا، لحق بي أسفًا مازحًا، قال: نحنُ إذن بحاجه إلى أم طبيعية. اِدَّعَيْتُ الابتسام، وداخلي بحاجة لصدرٍ ينفجر فيه باكيًا. وصلت الجامعة، التقيتُ، بها كانت تعرفني جيِّدًا، حبيبتي كرة البنغ بونغ، رفيقة طفولتي. سألتني: ما بك؟ الغُصَّة تغلق فمي. توارتْ بي، ضمَّتني إليها مرتبكة «هل يوجد أحد في أسرتك ليس بخير» هززتُ رأسي في كتفها «أنا لستُ بخير سأفقد عقلي» ربتتْ على ظهري بحنو قائلة: لا عليك يا منير؛ اِدّعيتُ عدم سماعها.. أردفتُها سريعًا برضوان. لم أتحرك، ضممتُها

لي بعنف أسعدها. مقدار العنف كان مقدار حنقي وكرهي لأخي سارق حبي وحياتي.

(طل المآقي) هذا كان لقبكِ، أتدرين مَتى أطلقتُه عليك؟ عندما كان منير يغلقُ الهاتف مِن مُكَالَمَتِهِ معك. كنتُ أراه ينظرُ للسقف بهدوءٍ، ثُمّ يبتسم تمتلئُ عيناه بلمعة فرحٍ، فقلتُ له دموع الفرحِ تُسَمَّى طلّ المآقي، إنَّها طلُّ المآقي، مطرُ الحبِّ. تدمعُ العينين، وتسعدُ القلب.. التفتُ قائلًا شكرًا لك رضوان أخي، كَمْ أحبّها مِن فمه! لم يكن ينطق اسمي إلَّا اتبعها بأخي.. أفتقدُه جِدًّا طل، أعلمُ أنَّك تقولين أنني جُنِنتُ؛ رفضتُ الترحم عليه في بداية الرِّسالة، وأعلنتُ كرهي له، والآن أشتاقُ إليه، أشتاقُ لارتباكه يوم أنْ اِلْتَقَاك.. أشتاقُ لاختياري لملابسه، وهي ينوي القدوم إليك، أشتاق لرشة عطره حين خروجه فَرِحًا، وجهه، وارتعاش يديه. يومَ حبّه لك كان يوم حريتي، وانتزاع نفسي منه، كنتُ أكثر سعادةً منه، أتدرين لماذا؟ لأنَّنِي أبتسم ساخرًا في وجه أمي، وهي تسيلُ الدعاء له عند خروجِه، أقول لها بداخلي إنَّ هناك مَنْ تدعو له، ويهتم بدعائها أكثر منك، تهتمين به، وهو يهتمُّ بغيرك، وأرسمُ لها ابتسامةً كانت تطفئ كرهي له. هل تعلمي أنَّنِي أخبرْتُ جميع أهل الحي بأنَّ منير سيتزوج قريبًا، كُلُّ مَن كان يسأل عن حاله، ولا يكترث بي كنتُ أقول له: اعلم أنَّك تحبّ أخي؛ لذا لن اكتم عنك سِرًّا، أخي زواجه قريب.. الكل كان سعيدًا، تغيَّر سلامهم وحديثهم لي.. كانوا يبتسمون لي محيين ويترقبون الأخبار، وأنا أطفئُ حنقي سعيدًا.. منير لا يُهِمُّه الآن بسماتكم، ولا سؤالكم ودعائكم. تهمه فقط بسمة طل، سؤال طل، وزواجه بها. أخبرتُ كرة البنغ بونغ، وهي في طريقها للمنصة لتقدِّم سمنار بدرجات عالية، كنا شركاء

فيه ومعي زميلين، كُنَّا نجعلها دومًا تقدِّم السمنارات بدلًا عنَّا. مرحها، ذكاؤها، خفتها، حركتها التي تجعلُ جميعَ جسدِهَا يُعلنُ روعة الحياة بَيْنَ يديها لم يكن بإمكاننا الهمس في محاضرة بروف ياسر، كتبتُ لها لدي خبر جميل، ردَّت فِي ظهر الورقة: «قُلْ؛ لأقدِّم السِّمنار بفرحٍ، ونكسبُ الدرجة الكاملة». كتبتُ لها منير أخي يعشق حسناء اسمها طل، سنذهبُ معًا لنقابلهم اليوم، ورسمتُ وجه أيقونة سعيدة، ذهبتْ للمنصة، وهي أشلاء، وأنا أبتسمُ ابتسامتي الجديدة، التي أصبحتُ أضعها في وجهي منذ علمت حبه لك، أتلذذ بها، تفرّغ طاقه كرهي له. أفقتُ علي ورقه أتتني من جانبي (دع ابتسامة الحب البلهاء التي علي وجهك سنحصلُ علي صفر بسبب كُرتِك اللعينة) انتبهتُ، وجدتُها تناثرتْ أشلاءً، نهضتُ، وقفتُ بجانبها، اتخذتُ من تقليب الأوراق ذريعة لأضع يدي علي يدها. الكل يعلم أَنَّنِي وضعتُ يدي على كُلِّ أجزائها. رأيتُ أشلاءَها تجتمعُ مِن جديد تحت مُسَمَّى: إنه أخيه، فلا بأس! أنهيتُ السمنار، صفّق لنا الجميع.. رفعتُ يدي عن يدها وعنها كُلِّيًّا.. لقد حرَّرني حبُّك مِن أخي. في بعض الأحيان أحبُّ موته أثناء دموعي عليه سريرِه الخاوي أدوات التصليح التي تحتلُّ نصف الغرفة، رسوماته. هل تعلمي أنَّه يجيدُ الرسم؟ عندما رسمتُ له يده بندبتها، وذيّلتِ الرَّسمة.. أحبَّ ندبتك أكثر منك.. كانت سعادته لا تُوصَف! سألته هل أخبرك بأنَّه يجيدُ الرسم؟ قال لا.. وأنت لا تخبرها أريدُها أنْ ترسمني ندبةً ندبةً، دون أنْ تخشى أحد. يجيدُ الرسم، كان يستمتعُ بكلِّ أشيائك، ويخلقُ حولها هالةً. أصبحتِ محورها وأخرجتِنا من دائرة محور المنير الذي ترك المدرسة؛ لينفقَ علينا أنا وأمي. حتَّى أمي رايتُها تكثرُ مِن الابتسام له، وخففتِ

الدعـاء لـه. أكـرهُ أُمِّي.. أكرهها، أتـدري أنَّني ظننتُها ستودعني اليـوم بعد أنْ أخبرتُها بسفري للرمَّاش، وتعطيني نصيب كبير مِن الدعـاء. قالـت «أجِّل السـفر للغـد؛ لنذهـبَ، ونخطـبُ لك طل.

عن أيِّ طل تتحدثين؟ أجابتني ببرود «خطيبة أخيك»

-لماذا يا أمِّي؟»
- سيسعد أخيك

كان غضبي فيها عاليًا «مَنْ قال لك أنَّ زواجي مِن الشيءِ الوحيد الذي كان يُحِبُّه سيسعده، ألا يكفي ما فعلتُه به، تزوّجتِ برجلٍ ضعيف لم يكترثْ بنا، جعلتِهِ يتحمَّلُ مسؤوليتنا وهو طفل، وكُلَّ ما تفعلينه تخيطين الملابس، والدعاء له، ماذا فعل له دعائك هل غير قدر موته هل أكمل بهجة قلبه، هل أكمل بناء غرفته؟ ماذا فعل رضاك الذي تهبينه له صباح مساء؟ هل أكمل ابتسامته؟ هل حفظني مِن الوحدة، لن أنجب لك ابن لتسمية على اسمه لن يكن لك منير ولا رضوان بعد اليوم .

طل.. قتلتني أمي مِن جديد، أعادتْني لمحور ظننْتُ أنَّني فِي فكاك منه. منير سيسامحُني على كرهي له، ولكن هل سيسامحُني على ما تريده أُمِّي هل سيسامحُ أُمِّي؟ لقد أوجعتْنِي أُمِّي، وأعلمُ أنَّي أوجعك الآن، لكن لم أجدْ أحدًا غيرك؛ لأبثَّ له ما سيذهبُ بِيّ للجنون، وقد ذهبَ بِيّ.. أخبركِ بما تنويه أُمِّي، فهي لن تكترث بثورتي، وتركي المنزل، وكرهي الذي أعلنتُه لها. رُبَّمَا تأتي إليك، فيما أغضبني أعتذرُ نيابةً عن أمي، هي سيدة أفقدها موت ابنها بعضًا مِن عقلها ولا تكترثُ لمشاعر ابنها الآخر.

طل.. أنتِ طل المآقي، ولكن مقلتاي ليست مِن ضمن المآقي. سأغادركم جميعًا، لِمَ أعاقبك معهم؟ لأَنَّنِي أُحِبُّك كحبِّ أخي، وأكرهُكِ ككرهي لأخي.. طل هل أنا أكره أخي...؟؟

رضوان

كانبيرا

(١)

لفتتْ انتباهي إطالة أبي فِي السُّجود منذ رجوعي مِن عطلة زواجي، فِي الفترات التي أزور فيها بيتنا أجده إمَّا ساجدًا أو بين يديه كتاب لا يُقَلِّبُ صفحاته. أبي قليل الكلام منذ أنْ وعينا، هادئ تحسُّ أنَّ الهدوء فُرِضَ على وجهه بقسوةٍ. سألته ذات مرة، هل أنت بخير؟ أجاب: نعم بخير! إِلَّا أنَّ ردَّه لم يقنعني، وجَّهتُ السؤال ذاته إلى أمي، قالت: لا أدري، وباللغة العربية التي يُمْنَع تداولها في بيتنا منذ ردحًا من الزمان بقرار منها شخصيًا، وحرصها على أهمية إجادتنا اللكنة الخاصة بأهل المنطقة التي نقيم فيها ما يفوق الثلاثين عامًا . قولها الصارم (لا أدري) وبالعربية الفصحى، جعلتني متيقنًا أنَّ هناك أمرًا ما يخصُّ أبي قد أُخْفِي عَنِّي. في زيارة أخرى لهم كنتُ لحوحًا أكثر مِمَّا مضى في السؤال، فقال لي بِكُلِّ هدوء: إِنَّ له اِبْنًا قد تُوفِي، قلتُ مُندهشًا: ابن!؟ قال لدي ابنان غيركما، منير

ورضوان، توفى منير قبل عام. تَمَلَّكَني الاندهاش، سألتُه مُجَدَّدًا، كم عمرهما؟. قال: منير أصغر مِن أخيك كمال بعامين، ورضوان يناهزك في العمر تمامًا، هنا أحسستُ بانقباض فِي قلبي، لم يفعل بي موت منير غير الاندهاش، لكن ذكر رضوان أشعرني بألمٍ فادح، ابن أبي الذي في عمري. سألته: أعلمت بوفاته الآن؛ وهو قد تُوفِي قبل عام ؟ قال لي: هل لي الحقّ بالعلم بمماته، وأنا لم أكن أعلم شيئًا عن حياته؟. نظرتُ لعيني أبي الممتلئتين بالدموع، سألني سؤالًا ربما أراد أنْ يواسي به نفسه، ولكنه سؤال وضَّح لي لِمَ حياتنا كانت أكاديمِيَّة مغلقة. أُمِّي لا تُرَحِّبُ أبدًا بمصادقة السُّودانيين، وتخلَّصتْ مِن جميع العادات والتقاليد ذات الجذر السُّودانِيّ، لم تعد الطعام السُّودانِيّ جزءً مِن حياتنا. أصبحنا أستراليين كُليًّا، كُلّ ما أعرفه عن وطني مِن مواقع البحث الإلكتروني، فلا حديث ولا ذكرى عنه تدور في بيتنا. قُدْتُ عربتي للنادي الرياضي، يضجُّ رأسي بأسئلة عديدة،

لِمَ قال أبي لي أبناء، ولم يقل لي لك إخوة؟

هل هذا يعني أنَّ لا شأن لي بِمَن مات، أو مَن هو حي؟.

هل الأمر يخصُّه وحده لا أحد سواه؟

هل الإخوة بالشراكة في الشخص أو بتشارِكِ المكان والحياة؟.

مَن يكونون؟

ولِمَ تركهم هكذا، وكُلّ هذه المدة؟

هل هم أبناء غير شرعيين؟ لذا قال لي أبنائي، ولم يقل لي إخوتك!

أفرغتُ كُلّ أسئلتي التي لا أملكُ إجاباتها فِي كيس الملاكمة، دمعتْ عيناي دون أنْ أعرفَ لهما سببًا.

تجَنَّبْتُ الذهاب إلى بيت أبي، إخوتي، كمال يقيم في نيوزيلاند، والفاتح في برزبين داخل أستراليا، ونحن في كانبيرا العاصمة، للي طبيبة بشرية، وسيدني، خبيرة تجميل، يقيمان في بيت أبي أو لا يقيمان معه، لا أدري، هُمَا في عملٍ دائم. اتصلتُ على أمي، أعلمتْنِي أنَّ أبي مريض، بصوتٍ حزين أعلمني أنَّها تعلم أنَّنِي علمتُ ما حاولت إخفائه عَنَّا بإِحكامٍ كل تلك الفترة. وجدتُ أبي صار كأنَّ عمره مئة عام، رافضًا الحديث، قالتْ لي للي باكيةً: «لم أجد تشخيصًا طِبّيًّا لحالته تحاليله نظيفة جِدًّا، لا أدري ما حدث له على وجه الدقة، غذائه الوحيد أصبح المحاليل الوريدِيَّة».

نظرتُ لأُمِّي التي تتحاشى النظر لعينيّ. أبي مغمضَ العينين، لا تُرَى فيه ملامح حياة. سألتُ نفسي، لماذا هو حزينٌ الآن؟ أهو يتألَّمُ لموت ابنه الذي فارقة مُنذ مُدَّةٍ، ولا يعرفُ الكثير عنه، أو لظلمه له، أو تسليمه لحريته وإرادته لأُمِّي؟ أبي خبير كهرباء سدود، له اسمًا ومكانةً في أستراليا، استشاراته لها قيمتها العلمِيَّة والمادِيَّة، الآن واقع في ظلمات ماضيه، وموت ابنه، غادرتنا أختي للي متعللةً بأنَّ مرضاها في انتظارها، نظرتُ مُجَدَّدًا في عينيّ أمي، وجدتُها كأنَّها تقول لي أعتنِ بأبيك، أنت تعلم سبب مرضه وألمه وحزنه. جلسْتُ إلى جواره صامتًا لا أدري ما أقول، وبصوتٍ واهن قلتُ: شد الله أزرك أبي، لا أدري لماذا قلتُ ذلك؟! رُبَّمَا لأنِّي فِي اللحظة الأولى عندما علمتُ بسرِّه، ألجمتْنِي الدهشة، ولَمْ أقوَ على عزائه. الحزن يعنيه وحده، الحَيْرَة، وسقوط الأخلاق والمُثل والقِيم، وأنَّ لوالديك وجوه

مُزَيَّفة تحيط بي مِن كُلِّ جانب إحساسي مُبْهَم جدًّا ومُرْبِكًا؛ لأنِّي لا أدري ما أفعل! فتح عينيه بصعوبةٍ بالغة وضغط على يدي، قلتُ له ماذا تريد مِنّي يا أبي؟. إيَّاك أنْ تُحَمِّلّني ماضيك! هتفتُ داخل نفسي، كرهتُ اليوم الذي ألححْتُ عليك بالسؤال عن حالك.. لو تجاهلتُ كما يفعل أخواتي الآن؛ لما رأيتُ نظرتك التي تقول لي أنتَ المنقذ لِمَا تبقى. ضغطَ مَرَّةً أخرى على يدي بِكُلِّ ما يملك مِن وَهَنٍ وحزنٍ، جعل غُصَّة تعاطفي معه تقفُ فِي حلقي، قلتُ له، أيْنَ هُمْ الآن؟. حاول جاهدًا الحديث ولكن لم تسعفه شفتاه، أشار بيده اليمني طالبًا قَلَمًا وورقةً، أحضرت له ما أراد، كتبَ عليها بخط مرتجفٍ؛ السودان -أمدرمان - بيت المال - منزل منير خلف الله السدابي، قرأتُها له بصوتٍ مرتفع ثُمَّ نظرتُ إليه فِي عينيه، أومأ برأسه مثنيًا على صحة قراءتي لمكتوبه، وبلوغي ما أراده. وضعتُها فِي محفظتي، وابتسمتُ له ببقايا غُصَّتِي، فكانت ابتسامتي هي ما جعل أبي يصبح مِن طريحِ الفراش إلى كهل في كرسي مُتَحَرِّك، تجلَّى جبروت أمي عندما جمعتنا جميعًا، ووضعتْ جدولًا للاعتناء بأبي، وأخرجت نفسها؛ فأصبحتْ حياة أبي مقرونة بجدولٍ صارم، يُرغَم أبناؤه على لاعتناء به؛ بالرغم أَنَّه فضَّلهم على أبناءٍ له.

استقبلتْني سنابيت زوجتي عند الباب، وأنا بِيّ ما بِيَّ مِن صراعٍ، واهتزاز صورة أبي في عيني. قصصتُ لها ما حدث أريتُها العنوان المكتوب، ابتسمتْ قائلة أبي يعلم أمدرمان جَيِّدًا، وضحكت واضعة يديها حول وجهي.. المهم لدينا أخٌ في السُّودان الكريم، وضمتني إليها، سألتُها أي سودان؟ تقصدين قالت: لي إنَّ أباها أخبرها أنَّه سكن في السُّودانِ فترةً طويلةً حتى تمَّت إجراءات اللجوء إِلى أستراليا، يقول أنَّه لَمْ يَرَ أمانًا فِي حياتِهِ وحبًّا كما

وجده فِي السُّودان، وقصَّتْ لي قصصًا لم اسمعها مِن فمِ أمٍّ ولا أبٍ. معرفتي بوطني عبر الذكاء الإلكترونِيّ لا روح وحس فيها. كانتْ فَرِحَة بالحكايات عن بلد أكرم والدها، وحسرتي على والدي الذي أدخلنا دائرة اللا هُوِيَّة، ونحن في ظله. وأبناء له احتفظ لهم بهويتهم، ولم يسبغْ عليهم ظِلَّه.. بَيْنَ عينيها رأيتُ النيلَ والخليلَ، مِن مسامِها فاحتْ روائح أدركتُها فيما بعد عند دخولي سماء إفريقيا في رحلتي عن البحث عن رضوان أخي.

زغرودة خارج الحدود

سَفَرِي لكينيا عام ٢٠١٢ كان أسهل مِمَّا كنتُ أتَوقَّع، تأسرني منذ animal orphanage لم أتَوَقَّع أنْ يكون مستقبلي العملي بها، فقط زيارتها في سياحة أنا وأصدقائي الهادي، ومجدي. رتَّبَ لِي أبِي الشفيع وظيفتي قبل تخرُّجي.. كان دومًا لسان حاله لي إذا أحببتْ ما تعمل؛ فإنَّك؛ ستبدعُ فيه منذ طفولتي كان يَسْهُل طَرْق ما أحبّ دون أنْ أتحدَّث له؛ فكان لي النجاح.. تخرَّجتُ كطبيبٍ بيطريّ بتقدير ممتاز. أحد أصاحبه مِمَّنْ يرتادون ناديه للأدوات الرياضية يمتلكُ مزرعةً فِي سوبا، بها منزل عطلته، ومجموعة ضخمة مِن الحيوانات البرِيَّة.. زرتُهَا معه كثيرًا، أذكرُ فِي أوَّل يومٍ زرتُه رأيتُ لأوَّل مَرَّة تماسيحَ وسط المزرعةِ، بِرْكَة متوسطة الحجم ذات سياجٍ مرتفعٍ، قاع البِرْكَة، وتلال بجميع الجوانب. أذهلني المنظر، والسكينة التي تبدو عليها هذه المفترسات الأفريقِيَّة التي أصبحتْ مغامرتي، وقوت حياتي بكينيا فِيمَا بعد. استلمتُ مهامي عندَّه، وسلَّمني أبي مِفْتَاح عربتي الجديدة؛ فأصبحتُ طبيبًا غير

مقيم لعددٍ مِن المزارع، وعُرِفْتُ فيما بعد بطبيب متخصص حيوانات برية. في أحد الأيَّام رجعت إلى المنزِلِ، صوت الشفيع أتاني مِن خلف الأبواب غاضبًا، لم أره يومًا غاضبًا، دعك مِن أنْ أسمعَ صوته! أُصِبْتُ بالخوف، وجدته يصرخ فِي أُمِّي عندما راني كف عن الكلام، وخرج ضاربًا البابَ خلفَهُ بعنفٍ.. أُمِّي واجمةٌ فِي منتصف الغرفة، سألتُها؛ قالت:

«أريدُ أنْ أتزَوَّج.. وخالك يرفضُ؛ أنتَ ما رأيك؟» قلتُ بلا اكتراثٍ:

«هذا شأنك..»

ذهبتُ خلف خالي الشفيع، الذي لم أجدْ له أثرًا، لكني أعلمُ أين أجده.. ذهبت للنادي، وجدته داخل عربته، لم ينزلْ بعد، طرقتُ زجاج سيارته، فتح لي، جلستُ قُلتُ: «هذا شأنها لا تخشي عليَّ؛ منذ طفولتي أنتَ أبي، والآن ستصير أمًّا لِي، أم لرجل عمره ٢٥ مِن الآن أنت my parents وابتسمتُ!

ردَّ عليَّ: «أنت مجنون!»

باغته بسؤالٍ: «هل بإمكان أمي الإنجاب؟»

نظر لِي مَلِيًّا، ثُمَّ قال:

«هل تريد أخًا؟»

«لا أعلم..»

نزلنا للنادي معًا، ولَمْ يتطرَّق للأمر معِي، أو مع أُمِّي مَرَّةً أخرى، تزَّوجتْ أُمِّي مِن طبيبٍ يعملُ فِي منظمة أطباء بلا حدودٍ في دارفور،

وسينتقل للعمل فِي كينيا، تَزَوَّجا وسافرا إليها بعد شهرين قالتْ: «لي أُمِّي نيروبي تشبهُكَ جِدًّا سأقومُ بإجراءات زيارتك لها، ستروقُ لك..» الآن كلكم سيكون لسان حالكم المثل السُّوداني الذي فيما معناها إذا ربَّيت غير ابنك سيتركُكَ ويذهبُ لهم، وإِنَّنِي سأغادر خالي الذي ربَّاني، وألحقُ بأُمِّي، وهذا بالفعل ما حدث، لكن ما لم أذكره لكم أنَّ خالي الشفيع تَزَوَّج منذ تسعة أشهر يوم زاوجه الذي علمتُ فيه صدق مقولتِهِ، وأنا صغير أَنَّ الأب لا يمكنُ أنْ يحلَّ محله أحد. فترةُ مراسيم الزواج رفقائي الهادي، ومجدي مقيمان معنا. كانتْ أجمل أيَّام حياتي، أفعلُ كُلَّ ما يسعد خالي، فأنا أعرفه كما أعرفُ نفسي.. تَمَّ الزواج بفرح غمر كُلَّ أسرتنا. عندما هَمَّ هو وعروسه بالمغادرة ضَمَّنِي إِليه بشدَّة، فهذه أَوَّل مَرَّة سيفارقُني لِمُدَّة شهرين سيقضيانها بين كسلا بورتسودان ومدني. التفتَ إلى الهادي، ومجدي وقال لهما انتبهوا لبعضكم، ونظراته بَيْنِي وبَيْنَ الهادي كمَنْ يقولُ للهادي، المُعز أمانة فِي عنقِكَ، ونظر إليَّ نظرة الحزن تلك، تتذكرونها.. النظرة التي رأيتُها فِي عين كُلّ مَنْ يعرف يُتْمِي أراها فِي عين خالي وأنا عمري ٢٤ عامًا.. تلك الليلة نام مجدي والهادي معي، سقَطَا مِن التعب، وأنا لم يلتقِ جفناي أبدًا. تذكَّرْتُ نظرة والد الهادي الحاج الخضر له عندما يغادر فِي سفرياتِهِ، يودِّعُه مطمئنًا، لا يخشى عليه، وعلى أفراد أسرتِهِ دومًا يتركُ له الأشياء، صغيرها وعظيمها دون قلقٍ أو خوف؛ فالأب يعلمُ حتميَّة انفصال الابن والمغادرة، فَيُرَبِّيه على ذلك بغرس الثقة والاعتماد عليه، وتدريبه على إدارة الأسرة بغيابه؛ ليُجِيدَ إدارة حياته فيما بعد ببراعة واقتدار. دَرَّبنا الحاج الخضر على ذلك بحبٍّ وإخلاص. اليومَ غادرني أبي الشفيع، وهو قَلِقٌ عليَّ أَمَّنَنِي أصدقائي.. لو كان أبي لغادَرَ مع زوجته، وقال كلماتٍ معدوداتٍ: «أصبحتَ رجلًا؛

تحَمَّل مسؤوليتك» الآن تتملَّكَنِي جميعُ الكلماتِ، ونحيبُ عمَّتِي على كتفِي، ولا أدري على مَنْ أَلْقِي اللومَ، على نفسي التي احترفت تفسير النظرات، أمْ أبي الذي مات وأنا فِي بطن أُمِّي، أم خالي الشفيع الذي لم يُتْقِنُ آخر دورٍ له فِي أبوتي؟!

(٢)

وصلْتُ نيروبي ظهرًا استقبلتْنِي أُمِّي فِي المطار، قلتُ لها إنَّني أودُّ زيارة مكان قبل الذهاب للمنزِلِ، سألتْنِي مُستغرِبَةً:

«هل تعرف أحدًا هُنَا..»

«نعم أصدقائي فِي مَيْتَم الحيوانات..!»

أغلقت الغُصَّة حلق أُمِّي، رأيتُ عينيها تدمعُ.. أنا لَمْ أقلْ ما يبكيها، لو تعلم منذ متى هم إخوتي؛ لما حَزِنَتْ الآن. تمَنَّيْتُ زيارتهم، وأنا فِي عمر الثالثة عشر. لم تتحدَّث مِعي مَرَّةً أخرى أوقفتني فِي بوَّابتها، وقالتْ تغلقُ أبوابها عند الخامسة سآتي إليك قبل ذلك، المنزل قريب مِن هنا، ميتم الحيوانات قريبٌ جِدًّا مِن الحديقة الوطنية، كما قالتْ أستاذتنا سُهَا عمر فِي الصَّف الأوَّل الثانوي، أقفاص صغيرة زاهية الألوان، الأشجار تتنوَّع ما بَيْنَ الطويلة والقصيرة، لكن العشب الأخضر يُغَطِّي كُلَّ المساحات، أطفالُ القرودِ يبعثون فِي القلب السعادة، أضاحكهم بضحكات أبي الشفيع. تنقَّلْتُ بَيْنَ جميع الأقفاص محدِّثًا لها.. الحُرَّاس مبتسمون كان قد تمَّ اختيارهم بعنايةٍ بالغة، نظرة لا تقهر طفولتي لا توجد فِي أعينهم.

يحدِّثُونهم بأصواتِ أُمَّهَاتِهِم وآبائهم.. سألتُ أحد الحُرَّاس هل يدخلونك دورةً؛ لتَعَلُّم أصواتِ أمهات الحيوانات والطيور؟ ابتسمَ قائلًا: «إِنَّنَا أبناء هذا المكان، تعَلَّمْنَا الأصوات مِن أماكنِهِم في الطبيعة.. أقفاص الطيور أشكالها مختلفة، أعشاش صغيرة يكثرُ فِي أرضِهَا العُشْب النابت المُعْتَنَى به. أبهرتْنِي ألوان الطيور وخاصة طيور الجنة، مُلَوَّنة بالأزرق الفاتح والأحمر، قال المشرف عنها:

هذا النوعِ شبه نادر، نكاثُرها هنا، نخشى أنْ تفقدَ أسرابُ طيور الجنة هذه الألوان.»ذهبَ بِيّ لقفصٍ فيه جميع أنواع طيور الجنة الموجودة في الطبيعة. تدمعُ عيناك مِن الجمال، ألوانٌ زاهية تبرز إِبدَاع الخالق في الطبيعةِ، قالَ مُكَمِّلًا: «وهي من الطيور الاستوائِيَّة تصلُ لأكثر من أربعين نوعًا، معظمها يعيشُ في غينيا الجديدة، وأستراليا.. يتمَيَّزون بريشهم الذي يُعْطِي مظهرًا مدهشًا فِي المزج بَيْنَ ألوان الطيف البَرَّاقة، الأصفر المشع، والأخضر اليانع. الذكور مُلَوَّنة، وأكبر حجمًا، الإناث غالبًا لونها أكثر حِيادِيَّة، مثل البني والأحمر؛ إذن التي نراها في السُّودان هي الإناث منها. طقوس الزواج عندها مِن أجمل مراسم الزواج، الذكرُ يرقصُ لساعاتٍ فاردًا ريشه المُلَوَّن حتى ينالُ إعجاب الأنثى، وقد يستمرُّ لفتراتٍ طويلة ومتعددة. توجد مجموعة مِن صغارها هنا، الطفلُ المولود يُولد بلا ريش، ولا يستطيعُ المشي، أو الوقوف؛ لذا يعتمدُ على الأُمِّ فِي كُلِّ احتياجاته، ويستقلُّ بعد شهرٍ مِن العمر. إذا حدثَ للأُمِّ مكروه يصبحُ الأطفال فِي خطرٍ، وهي تفقس حوالي خمسة بيضات فيصبحوا أيتامًا نأتي بهم إذا وجدناهم قبل المفترسات الصغيرة. نطعمها البباي، والتُّفَاح، والشمام، والديدان، أهَمّ أنواعنا هنا فِي كينيا طائر الجنة الملكِيّ هذا النوعِ يظهر باللون الأحمر

الذي يمتزجُ بالأبيض على الصدور هناك علي الجانب الأيمن من القفص، وتبدو رؤوسهم، وكأنَّها خوذات رجال الإطفاء الحمراء،و لمسة خضراء خلف أعناقهم تجعلُ مِن ريشهم عملًا فنيًّا بديعًا. أقدامهم مائلة للون ورد الوينكا الأرجوانية، ويبلغ طول طائر الجنة الملكي حوالي ستة عشر سنتميتر،لها زوج من ريش الذيل الممدود بلون أخضر غامق، وكالعادة مع هذه الطيور تكون الإناث غير مُزَيَّنة، فهُنَّ مجرد طيور بنية.، ونوعٌ آخر مُهِمٌ وذو سمعةٍ رائجة طائر الجنة (راجينا) وهِي موجودة على نطاق واسع، وهي الطائر الوطني لبابوا غينيا الجديدة هناك تقف في المنتصف، ويُحْظَى بشعبية كبيرة بسبب ريشه الملون الرائع، والذي يقوم بجمعه السكان المحليين؛ ليلبسوه خلال المهرجانات والاحتفالات المحلية، لون الكستناء مع منقار أزرق ضبابي، للذكور تاج أصفر كلونِ المانجو، وحلق بلون الزُمُرُّد الأخضر، أمَّا الإناث لونها لون بني خشبيّ، ذيل الريش قصير، ويشتهر بهزِّ الريش والتصفيق بأجنحته وتحريك رأسه. طائر الجنة الأحمر له ريش أحمر لامع، ويتواجد في إندونيسيا في غابات الأراضي المنخفضة وغابات التلال في جزر بابوا الغربية، الذكر بلون بني وأصفر، وقزحِيَّة العين بنية داكنة وأرجله رمادية اللون، منقاره أصفر، ووجهه أخضر زرعي، والأنثى أصغر في الحجم وذات وجه بني، يأكل طائر الجنة الأحمر الفاكهة ويفضِّل التوت، يأتي إلى شواطئنا في رحلات الهجرة قديمًا. يصطادُ السكَّان المحليون طائر الجنة للحومها التي يُنظَر إليها على أنَّها أَطْعِمَة شهيّة فِي العديد مِن الثقافات المحلِيَّة القديمة ، يقوم مستثمرو الأراضي أيضًا بالتعَدِّي على بيئتها وإزالة الغابات، مِمَّا يعد من المخاطر التي تهددها بالانقراض. خلال الثمانينيات

والتسعينيات مِن القرن التاسع عشر كانت جلود وريش هذه الطيور مُهِمَّة جِدًّا للأزياء النسائيّة الأوروبِيّة. هي طيور مهاجرة من غرب أفريقيا إلى أستراليا عندما تأتي في أسرابٍ ضخمة، تحجب الشمس، وما يسقطُ مِن أشعة الشمس على الأرض يُغطِّي الأرض بألوان الطيف الزاهية.

وقوفي أمامَ صِغار طيور الجنة كان الأطول والأشد متعةً، لكن التغير الذي بدأ فيه عمل جزءٍ مِن جسدي ظننْتُ أنَّ الأيتام رُبَّما لاحقّ لهم فيه، كان في قفص السلاحف الصحراوِيّة، سلحفاة صغيرة على يدِ فتاةٍ تفحصُهَا باهتمام. قال مرشدي دكتور. ساشا جيكويو مشير لها متخصصة أمراض الزواحف، مسئوليتها صغار السلاحف، الثعابين، والسحالي، والتماسيح التفتتْ إلينا، حَيَّت المرشد باسمه، وابتسمتْ لِي مُحَيَّية. تخاطبا بلهجةٍ لم أفهمها، فيما بعد علمتُ أنَّها لغة الكيكويو وسط كينيا. ترجم لِي قائلًا: «طلبتْ إبعاد السلحفاة الصغيرة لقفصٍ منفصلٍ، وإطعامها الخضروات الطازجة، وإضافة الكالسيوم لغذائها، نموها غير متناسق مع عمرها» سألتها كم عمرها؟ أجابتْ ثمانية أشهر. خرجتْ مِن القفص، أصبحت مصاحبة لنا، وقفتْ أمام قفص صغار التماسيح تناديهم بأسماءٍ، وهم يطقطقون بذيولهم، كأنَّ أُلْفَة طويلة بينهم، وحبّ. وقت الإغلاق الخامسة مساءً يلزمنا الخروج مِن الميتم، صافحتُها مُعَرِّفًا بنفسي وبتخصصي الجامعي كمتخصص حيوانات برية، راقَ لها تقاربنا فِي التخصصات، وضغطتْ على يدي، لا أدري لِمَ؛ رُبَّما معرفتها بتقاربنا الدراسِيّ، أو أصابها ما أصاب قلبي، خرجتُ لأجدَ أُمِّي مُحمَرَّة العينين بانتظاري، وأنا تائهٌ فِي عيني ساشا، وعشقي لنيروبي المدينة التِي سكنتْنِي مِن

درسٍ مدرسِيّ.

أنيابُ العاجِ المصنوعة بإتقان مِن الألمونيوم فِي شارع موي الدوليّ، علامة الدخول لقلبِ المدينة، مررنا تحتها أنا وأُمّي فِي طريقنا إلى المنزل نَصْبٌ ضخمٌ لأنياب فيل تسقفُ الطريقَ بشكلٍ جميل وخلَّاب؛ لتحكي الطبيعة العظيمة لهذه الأرض.

أخرجُ مِن البيتِ صباحًا، وأعودُ ليلًا. أفتتحُ يومي يومِيًّا بزيارةِ ميتم الحيوانات، ومقصدي واضح أنْ أرى ساشا، وأتفقدُ معها سلحفاتها ناقصة النمو. ساشا أوَّل شخص أصادقه فِي نيروبي، الأحاديث المشتركة، المعرفة بأمراض صغار الحيوان كانتْ مدخلنا للتعَوُّد على بعضنا، وخلق الألفة التِي أصبحنا ننتظرُ وقتها كُلّ يومٍ. بيتر كرستوفر الصَّدِيقُ الثَّاني ألتقيتُ به فِي رحلة الغوص فِي حديقة مومباسا البحرية، الشِّعَبُ المرجانِيَّة داخل عمق شاطئ المحيط الهندي،نباتات المانغروف، الملونة جَنَّة داخل المياه،كائنات مائية بِكُلِّ ألوان الكون الأساسِيَّة والفرعِيَّة، فرسُ البحرِ، الثعابين، وأنواعٌ مختلفة مِن الأُخطبوط.. التقينا تحديدًا عند الغواصات القديمة الغارقة، أكملنا أحاديثنا على الشاطئ الرملي، أصبحنا رفقاء السِّيَاحة، والتَّسْفَار، لم نترك شبرًا فِي مومباسا وشاطئها على المحيط الهندي. أنا سائحٌ حُرّ،وهو في انتظار التصريح الذي يسمحُ له بإنشاء مزرعة التماسيح. كان قَلِقًا، تبدَّدَ قلقه بزياراتنا لجميعِ المناطق السياحِيَّة معًا، بدأنا بحصن يسوع ، العمارة العسكرية في القرن السادس عشر مِن أجل حماية ميناء مومباسا مساحة الحصن هائلة جِدًّا، خندقُ القلعة وروعة أَبْنِيَتِها العالية مِن المناطق الأسرِيّة التي شملتها رعاية اليونسكو. أصابنا الجوع، أشار

علينا أحدهم بالذهاب للمركز الثقافِيّ، به أطعمة صُنِعَتْ بحبٍّ ونقاء، عبارة عن جمعية للمعاقين فِي مدينة مومباسا؛ للتشجيع والدعم مِن أهم أماكن الجذب السياحِيّ تحتوي على مجموعةٍ مِن الورش، ومطعم للأكل الشعبِيّ. تمتَّعنا بالأكل، بالرقص الشعبي ومجسَّمَات المساكن التقليدية الموجودة فِي جميع أنحاء كينيا، تَمَّ صناعاتها فِي مكانٍ واحد، بطريقةٍ مشابهة لأماكنِهَا فِي المُدُن الكينِيَّة المختلفة، مشغولات يدوية جذَّابة، مجوهرات وقلائد مِن المنتجات الطبيعِيّة والبحرية والحيوانية، ومنسوجات القش المُلَوَّن طبيعِيًّا بطريقة تَسُرُّ النظر. الشراءُ منهم يساعد على رفع الروح المعنوِيَّة لهم، ويساعدهم في حياتهم اليومِيَّة. خرجنا منها سعداء لإنسانِيَّة الإنسان، وكرم الطبيعة.. جميعُ موادهم الخام مِن الطبيعة، وحرفِيّة ومهارة أيديهم يجتمعا معًا؛ ليضعا حقيقة اجتماع الإنسانِ والطبيعة بحبٍّ؛ لتنتجَ جمالًا مُنقطِع النظير. صادفتنا (الكوكارت) المسارات الطويلة على الطريق الوعر بعربات السفاري، تسابقنا أنا وبيتر، كَمْ تمنَّيْتُ أنْ يكون مجدي والهادِي معنا! وعورة الطريق تمنحُكَ إثارة عالية، تمتلكُكَ روحُ المغامرة نحن ومعنا مجموعة مِن السُّيَّاح أشار أحدهم للذهاب إلى فردوسِ الأرضِ المنبسطة، منتزه هالر بارك للراحةِ والاستلقاءِ؛ أثنى أحدُ المشرفين على المُقتَرح. المرشدون فِي كينيا فِي أيّ موقعٍ تجدُهم، تصرفاتهم تلقائيّة بلطفٍ، وسلاسة تعكسُ روعة الموطن الكيني.. بدا حديثه التعريفِيّ بالمنتزه صنعته الدكتورة رينيه هالر عام ١٩٧١ حوَّلتْ مناطق استخراج الحجر الجيرِيّ المهجورة إلى مَحْمِية طبيعية بها عددٌ مِن الحيواناتِ البرية، بها حديقةٌ للنخيل، مزرعةُ أسماكٍ، وهي موطن لسلحفاة تبلغ من العمر ١٣٠ عامًا، سنقف عندها ويمكنكم ألتقاط الصور.

عدد وفير من الطيور منها البجع، واللقالق، والصقور، ومسارات للدراجات الناريّة، وركوب النعام تجدون، فيها الأطعمة العالمِيّة والمحلِيّة، ومساحات خضراء مخصصة للاستلقاء وتأمُّل حدائق النخيل، والأشجار العالية، والاستمتاع بالهواءِ الطبيعي.. ظللنا بها حتَّى المساء، أصبحنا مجموعة سياحية بها سبع أشخاص، اتفقنا أنْ نلتقي غدًا صباحًا في البلدة القديمة، على الجانب الجنوبي الشرقي مِن جزيرة مومباسا، قلتُ لبيتر سألحقُ بكم سألنِي لِمَ؟ قلتُ له: «لا يُقَالَ..» لا أدري ماذا أظهرتْ ملامحُ وجهي؛ فردَّ قائلًا: «إنَّ فِي الأمر فتاةٌ ،القلوب لا تصمد أمام حسناوات كينيا» ضحكتُ.. قلت له سأتصلُ بك لأعرفَ أين أتم.. أقصُّ على أُمِّي مشوار زيارتي اليومِيّة الذي بداية من ميتم الحيوانات؛ في بداية سردي لها أرى سؤال يقف عند فمها فتستبدله بابتسامة عذبة، لكن أتصوَّر أنَّها أحسَّت بالتغير الذي تسلل إلى داخلي..

وجدتهم عند الرياضة المائيّة، غمز لي بيتر مشيرًا لتطاير الماءِ فِي الفضاء الذي يعطي الساحل شكلًا مغايرًا، ركوب الأمواج، التزلج علي الماء والتزلج الهوائي . قلت لبيتر نجربها قال لا أودّ أنْ أفقِدَ روحي، دفعته بالقوةِ مردِّدًا كيف ستصبحَ صاحب مزرعة تماسيح؛ وتخشى الموت.. قال لا أريدُ الموت قبلها يا هذا. مِظَلَّة تسعنا الاثنين. بيتر مُهدَّد إنْ أصابه مكروهٌ ما لنْ يغفرَ لِي، قال إنَّ حجمي الضخم سيجعلنا في قاع المحيط، طمأنه المرشد إنَّه الوزن القانوني خاصةً أنّ حجم بيتر ضئيل. ثلاثون دقيقة على المِظَلَّة الهوائِيَّة على سطح البحر مباشرةً؛ رأينا جمال البحر مِن علٍ، وصوتُه العذب، شعور الخوفِ يتحوَّل إلى فرحٍ غامر، وإحساس نادر الجمال. تمسُّ قدماك سطح البحر، وترتفعُ مِن جديد، رؤية السطح تختلفُ

تمامًا مِن المنظر على الشاطئِ، منظرٌ يعلقُ بذاكرتِكَ للأبدّ! تَمَّ تسليمنا شريطًا مصوَّرًا، تَمَّ تصويره بكاميرا مُثَبَّتَة على المِظَلَّة، خوف بيتر كان واضحًا قال: لم يكن خوفًا كانت تيارات المحيط الباردة. بيتر نحن في منتصف النهار أيّ برودةٍ تلك؟ ضربني فِي كتفي بحبٍّ ذكَّرَنِي خالي الشفيع وأصدقائي. فِي اليوم التالي اتفقنا لزيارة قرية مومباسا المركزِيَّة، ولم نتوَقَّع أنَّنا لن نخرج منها. تقعُ في نيالي بها أكبر مزرعة للتماسيح فِي كينيا، وهي مِن المناطق التي اقترح بيتر مزرعته أنْ تكونَ بها. مساحاتٌ واسعة، التماسيحُ بجميع الأعمار تنتشر على مساحاتها المائيّة، والمرتفعات الطينِيَّة والصخرية التي صُنِعَتْ لهم، محاطة بالنخيل وأشجار الفواكه. قالَ بيتر مزرعتنا ستصبحُ هنا.. قلتُ له: «مزرعتنا؟! لِمَ جمعتني معك؟»

«ما رأيك بمشاركتي..؟»

«أوافق بغير تفكير.»

(٣)

أُمِّي لأوَّل مَرَّة تطلبُ مرافقتي، قالتْ إن وددتَ زيارة سُّودَان أنا معك. وحيد القرن السُّودَانِي الذي يقيمُ فِي مَحْمِية أو بيجتا. اتفق الطاقم السياحي على زيارتها طلبتُ مِن أُمِّي أنْ نلتقي هناك مِن نيروبي للمحمية المسافة إحدى عشر دقيقة فقط، ومِن نيالي حوالي عشر ساعات، وافقت على أنْ تتحرَّكَ في وقت يصادفُ وصولنا. تحركنا ليلًا؛ لنصل صباحًا، مسافة الطريق ساعات من الأسئلة التي لا إجابة لها بالنسبة لِي جالتْ بخاطري، هل

تَمَّ بيعه؟ هل قُبِضَتْ أثمان؟ أو من أجل الطبيعة الأم مِن أجل التدابير الطبية، وامتداد نسله الموشك على الانقطاع؟ هل هو غاضبٌ الآن؟ أَمْ استنشاقه لهواء أفريقيا يغنيه عن مكانه، المكان؟ ساعات علي الطريق السريع إرهاقها يذهبُ بأوَّل خطوة داخل المحمية، إشراق الطبيعة، حركة الحيوانات البرية الدائمة والمترقب مشاهدتها فِي هذا الوقت من العام. المرشد يخبرنا يجب أَنْ تكن مُترقِبًا، وكاميراتكم في وضعِ الاستعداد، بإمكانكم رؤية العشرة الكبار! صوتُ أستاذتي سُهَا عمر يرنُّ فِي أذنيّ الآن وهي تذكر الأسماء العشر . الأنهار التي يتخللها منظرٌ يمسُّ الوجدان، وشِغاف القلب، التعامل الرفيع مع الحيوانات، ينادونها بأسماء تلتفتْ عند سماعها. الحُرَّاس يعطوك مساحة الأمان والتغَزُّل فِي المخلوقات. كُنتُ وأُمِّي معًا عند وحيد القرن قالتْ: «أراه سعيدًا مع حفيدتيه ناجين، وفاتو.. يسير وسطهم كآلهة تفرّد الكون بها، حارس سودان أصبح يعرفنا جَيِّدًا؛ لجلوسنا المتواصل فِي المكان المخصص له. بيتر يمازحني: «يجب أنْ نضيفَ للقبه سودان، جنوب السودان» أُمِّي مبتسمةً «سودان النيل سيرضى جميع الأطراف.» أشعرُ أنَّه يحادثنا ويعلمُ أنَّنَا شربنا مِن نَهْرٍ واحد، أخشى إِنْ قلتُ لأُمِّي وبيتر أنني أراه يبتسم لي؛ لوُصِمْتَ بالجنون.. التزمتُ الصمت لكنّني أراه مبتسمًا سعيدًا، غربة المكان لا تعنيه ما دام بَيْنَ الأهلِ والأصحابِ ودَّعناه، خاطبني بعينية قائلًا بأنْ لا أطيل الغياب.

مَشْرُوع بيتر مُنِحَ التصريح بإنشاءِ مزرعة التَّمَاسِيح فِي نيالي، كنتُ االشريك الذي قال أوافق بدون أنْ يُفَكِّر، ساعدني خالي وأُمِّي؛ لأكونَ ذلك الشريك.. بعد رحلة السِّياحة اتجهنا لرحلةِ الشراكة

العملِية، نصيبي المالي فِي الشراكة لم أتَمَكَّن مِن تسديده كاملًا؛ فعيَّنْتُ نفسي عامل تنظيف، ورعاية طبِيَّة، الخبرة التي اكتسبتها فترة عملي فِي المزارع في سوبا. أخبرتُ بيتر بساشا، وإمكانِيَّة ضَمَّها إلينا كمتخصصٍ فِي أمراضِ الزواحفِ، وهو أمرٌ مهمٌ جِدًّا، قد يتلف القطيع جميعه إذا أُصِيب أحدهم بعدوى ما. غذاء التماسيح الذي يعتمدُ على جميع أنواع اللحوم بيئة خصبة للجراثيم المُسَبِّبَة للأمراض، التنظيف والتعقيم لبرك التماسيح مِن أشقّ وأخطر المهام في كثيرٍ مِن الأحيان تخرج مصاب بهجوم أحدها عليك، تحبُّ الذرة المعطونة في الدم، تُشَكِّل وجبة تحلية لذيذة لها.

وجدتُ ساشا تضع بيضات سحلية فِي إحدى الأعشاش بجانب بعض السحالي، أشارتْ لي بالهدوءِ وضعتْهم، وخرجت أخبرتُها برغبتنا فِي انضمامها للعمل معنا، قالت:

«أوافق؛ لكن بعد شهرين لدي حيوانات هنا لا يمكنُنِي تركها الآن، ولا يمكنُني السفر يومِيًّا.»

«إذن بعد شهرين بإمكانِك العمل معنا..

«نعم، بالتأكيد..»

أضفتُ «وهل بإمكانك الزواج بي أيضًا.»

وهي تضحكُ!

«هذا أغربُ طلب زواجٍ أسمعه؛ طلبين فِي آن واحد»

«أريدُ إجابةً ساشا..»

قالتْ بهدوءٍ «أوافق على الطلبِ الثَّاني أيضًا..»

هذه المَرَّة أنا مَن ضغط على يدِهَا مصافِحًا.

أُمِّي أطلقتْ زغرودتها فِي قلبِ نيروبي

لوحةُ على الجِدار

بَيْنَ يَدَيّ ابن خالي الشفيع، أجملُ طفلٍ في جميع الأكوان المرئية والخفية منها، قال لي أصبح لديّ طفلٌ. أقلَّتني أوَّل طائرة مِن كينيا للخرطوم، عانقني عناق شاهدنا فيه جميع ذكرياتنا معًا، نومي بجانبه، وجعلي مُحَلِّقًا فِي الفضاء، اليوم خبرتُ أنواعًا جديدة مِن النظراتِ، نظرة السَّعادة التي فِي عين خالي أيقنتُ أنَّها أسمى مراتب النظرات في الحياةِ، تتفوقُ على نظراتِ الحبِّ والشغف، وهي تصنعُ هالة فرحٍ، تحيطُ كُلَّ الاتجاهات فِي هدوءٍ وصمت عذبٍ، وبريقٍ أخَّاذ. قلتُ له «ماذا سمَيَّته؟»

«المعز الثَّاني..!»

وأبتسم، لا أدري إِنْ كان يجب عليَّ الابتسام، أمْ أعارض، وأطالبُ باسمٍ جديد لأخي العزيز! حَرِصَ الهادي، ومجدي أنْ يكونوا معي يومَ عقيقته، واكتشفنا أَنَّنَا قد بلغنا مرحلة «تفضَّل يا خال»،

وأجيال جديدة تقومُ بالضيافة والاهتمام.. راق لنا الوضع الجديد، وأصبحنا أعمام وأخوال، الهادي له ابنان، ومجدي في انتظار الأَوَّل، وأنا أنوي الزواج بعد رجوعي إِلى كينيا مِن ساشا متخصصة أمراض الزواحف في مزرعتنا. لقاءاتنا أصبحت في منزل الهادي بعد زواجه. ابتنى غرفةَ الضيافة قبل بقية الغرف. نزورُ منزل أبيه الحاج الخضر كُلّ جمعة قبل تفَرُّقنا أنا لنيروبي، مجدي لصيق بأبيه فِي إدارة شركته، ويعملُ على قيام شركته الخاصة للاستيراد والتصدير. الهادي محاضر جامعي، ويمتلكُ مكتب للاستشارات المجتمعِيّة استشاراته التي طبَّقها علينا أولًا، نمازحه طالبين حقّنا المالي في خبراته التي كانت على رؤوسنا.. مجدي يطالب بالنصيب الأكبرِ زاعمًا أنَّ خبرات الهادي نَمَتْ وجُرِّبتْ عليه. وصل مجدي اجتمع شملنا الضاحك. والحدث مثار التنَدُّر والحديث كان موضوع زواجي مِن ساشا بعد أشهر، وإجباري لهم جميعًا بحضور مراسم الزواج بنيروبي.

أنتبه إلى لوحةٍ مُعَلَّقَةٍ على حائط غرفة ضيافتِنا فِي منزل الهادي، سألتُه:

«مِن أيْنَ أتيتَ بها، إنَّها مِن ريشة ألمها عميق..؟»

قال: « فِي طريق العودةِ مِن منزل أبي تذكَّرْتُ أَنَّ ابنتي سحر تريدُ أدوات مدرسِيَّة. وقفتُ أمامَ مكتبةٍ واسعةٍ بجانب الطريقِ، أثناء اختياري الأدوات شاهدتها في حاملها، لم تجف بعد. رأتْنِي صاحبة المكتبة أنظرُ إليها، قالت: «تريدها؟» فترَدَّدْتُ، في غِمار تردُّدي أنزلتها مِن الحامل، ومدَّتها لي قائلة: «ضعها في مكانٍ مضيء..» سألتُ كم ثمنها ابتسمتْ ابتسامة بها كل أحزان الكون قائلة: «هل

أتي زمان نتكسبُ فيه مِن الألم..» دفعتُ ثمنَ الأدوات، وحملتها بثمن الحزن. «أَلَمْ تذهب مَرَّةً أخرى إلى هُناك؟» لم أفعل نظر المعز إليها نظرة طويلة، وقال: «بها لمحة ألم لم أعهدها، ولم أرها مِن قبل»

قال مجدي: «حزنٌ بلا سواد، لم أرَ مِن قبل اللون الأبيض والأخضر يخلقان الأحزان»

(٢)

حاجُ الخضر صحتُّه فِي تراجعٍ، مكثَ فِي العناية المُكَثَّفَة ثلاثة أيَّام ثُمَّ ألححنا ومعنا الهادي ليقيم معه في منزله، وهو يصر على الرفض ظللنا نُلحُّ حتَّى وافق على يومين لا يزيدُ عنهما. المساء نرى ابتسامته بَيْنَ أحاديثنا، وذكرياتنا التي كان له نصيبٌ كبيرٌ فيها. يسألنا كم الساعة وإذا أتت التاسعة يصدرُ أمرًا بأنْ نغادرَ لمنازلنا؛ فجعلنا التاسعة لا تأتي أبدًا حتَّى يغرقُ فِي النوم. فَطِن لذلك؛ فاسمعنا صوت حاج الخضر الذي نعرفه، ونلوذ حياله بالصمت، خرجنا مجدي إلى بيتِ والده، وأنا لبيت خالي الشفيع. لفت انتباهي لافتة مكتوب عليها مكتبة طل تذكرتُ اللوحة التي تُزَيِّنُ جدار الهادي هل هي؟ وسط أسئلتي وجدتُ أقدامي تقفُ أمامها، ووجدتُ معلقاً عليها (مغلق) لكن الأبواب الحديدِيَّة غير مغلقةٍ. قلت لنفسي يمكنُني أنْ أرى اللوحات مِن خلال الزجاج وأمضي، وضعتُ يدي على الباب ففتحَ معي، ساورني الشك أفتحته أنا أَمْ انفتح لوحده؟ لوحات ثكلى، ولا لون أسود فيها نحيب الريشة، وبكاء الألوان

معلَّقه على كُلِّ الجدران، شممتُ رائحة بكاء عمَّتِي مُنَى على كتفي مِن جديد، أصابتني غُصَّةٌ ما؛ فأدركْتُ أنَّ حزن اللوحات لفقد أحدٍ ما.. اقتربْتُ مِن إحدى اللوحاتِ، سمعت تهدُّج بكاءٍ.. خارج من اللوحة؟ أم مكانٍ آخر.؟ أدرتُ وجهي يمينًا؛ وجدت بابَ مكتبٍ صغيرٍ داخل المكتبة، اقتربتُ أكثر كان حديثًا بين سيدتين لا أدري لِمَ تقودني قدماي لأسترقَ السمع.

قالتْ لها: «سيسعدني، ويسعد منير فِي قبره يا طل..»

فكان ردها الممتلئ بالألم «رضوان ومنير معزتهم داخل قلبي واحدة.»

«سيوافق رضوان إذا أنتِ وافقت..»

أربكني ما سمعتُ منير داخل قبرٍ.. إذن رضوان أخ له. كيف تخطب امرأة حزنها يجتاح اللوحات لأحدٍ ما! ما هذا؟ ضجَّ داخلي، وتوقف عقلي، أيّ حوارٍ يدورُ الآن، وأشهدني عليه القدر. تأمرنِي قدماي بالجلوسِ. فجأة وقفَ شابٌ أمام كلمة مُغلق وهو ينظرُ إليَّ فِي الداخل ماذا سأفعل؟ يواصل الوقوف احترامًا لمغلق لكنه يريد الدخول نهضت إليه، قال خطاب لمكتبة طل فأخذته، ووقعتُ بالاستلام مكتوب عليه مكتبة طل، المرسل رضوان خلف الله السدابي. خرجتُ والخطاب لصيقٌ بيدي.

السَّاعة الثالثة صباحًا طرقت باب منزل الهادي «المعز تبقَّت لطائرتك ساعة، ماذا هناك» قصّ لي ما حدث في المكتبة ثُمَّ أكمل، إنَّه قرأ ما بداخلها قال دامع العينين بحار الحزن لا تنتهي.. وضعها في يدي قائلًا «رُبَّمَا طل تحبُّ رضوان..» وذهب والرسالة بَيْنَ يَدي،

ولا أدري ماذا أفعل، هل أسلِّمُها لطل أم أرجعها لرضوان؟ وماذا يعني بـ «ربما» طل تحب رضوان؟ أعرف المعز جَيِّدًا إِذْ لا يُلْقِي كلماتٍ بلا أسباب. أصبحت الرسالة مفتوحة الآن؛ أسرارها خرجتْ مِن بَيْنَ سطورها فِي حَيْرَة بَيْنَ تدخلي في أمرٍ لا دخل لي فيه، وعتمة حزن قد تضئ خلف آخر ورقة مِن الخطاب كتبتُ

السيد رضوان خلف الله السَّدابي لم يصل الخطاب ليد طل رُبَّمَا كانت مشيئة القدر، نعتذرُ اعتذارًا بالغًا لفتحها، وقراءتها، لا عذر لهذا التصرف، ونحن نتقبَّل كل ما تصفنا به. ولكن عند وصول الرسالة نعتقدُ أنَّ والدتك كانت معها كما توقَّعتَ. كان ردها أنَّ معزَّتك فِي قلبها مثل معزه منير، والشاهد الذي سمع الحديث اعتذر نيابة عنه لسماحه لنفسه بذلك، يقول ربما طل تحبُّك لذلك رجحت إرجاع الرسالة إليك مِن أنْ أسلِّمَها لطل. اعتذاري العميق.

الهادي الحاج الخضر.

رقم هاتفي مُدَوَّن فِي أسفل الورق

٠٨١١١٣٣٣٨٨٨٨

الواثق السجمان

(١)

بدأْنَا إجراءاتنا أنا وسنابيت للسفرِ للخرطومِ، دون علم أحدٍ مِن أسرتي، وكُنَّا فَرِحين أَنَّنَا سنسافر معًا لبلدٍ تُحبُّ هي أنْ تشكره، وأنا أبحثُ فيه عن ذاتي، لكن الأمر لم يتم كما خطَّطنا، فحملها وتوصية الطبيب بعدم الحركة؛ جعلني فِي حَيْرَة، قرَّرْتُ عدم السفر للبقاء بالقرب منها، وسعادتي بطفلي أنستني أبي وابنه، لكنها كانتْ تَلِّحُ عليَّ بأنْ أذهبَ؛ لكي يطمئنُ قلبَ أبي الذي كان مَن يراه يجزمْ بأنَّه لن يعيشَ للغدِ، سافرنا إلى أسرتها لتظل معهم فترة غيابي .يوم سفري أخبرتُ أبي؛ فكان رده بدموعٍ مِن عينيه. أمي قالت:

«السُّودان غير مستقر، به مظاهرات.. انتظر حتَّى تستقرّ البلاد، وتذكَّر أنَّ لك ابن في بطن زوجتكَ.»

«وهل ينتظر أبي..؟»

كنتُ أترقَّبُ لتزيد أمي كلماتها؛ لأخرجَ كُلَّ ما في صدري، ولكنها اكتفت بذلك، وغادرتْنا. طوال الرحلة كنتُ أتذَكَّرُ كُلَّ ما قرأتُه عن وطني، والأحداث التي تدورُ الآن بَيْنَ الشعب الثائر، وحكم مستبدٍ امتدَّ لثلاثين عامًا. وصلتُ مطارَ الخرطوم استغليتُ عربةً إلى المقصد، العنوان الذي كتبه لِي أبي. كنتُ أتحدَّثُ اللغةَ العربيةَ الفصحى، إِنَّه الصراع الوحيد الذي انتصرت فيه إرادة أبي على أُمِّي كان يذهب بنا لمركز الدراسات العربية في العاصمة مَرَّتين فِي الأسبوع، كانت من أسعد أوقاتنا، نرى ابتسامته، وهو ينطق الحروف لنا، والكلمات الدارجِة التي أذكر بعضها الآن. قال السائق اليوم هو يوم المظاهرات ستبدأ عند الواحدة ظهرًا، الوقتُ اقتربَ ،إنْ شاءَ الله تصل بالسلامةِ، تذكَّرتُ ما قرأتُ أَنَّ تجمُّعَ المهنيين يضع جدولًا يتفق عليه جميعُ أهل السُّودان، والآن أنا أراه بعيني.. السَّاعة الواحدة اقتربنا مِن كبري أمدرمان، وجدنا الثوار، قال لي صاحب العربة إنَّه لا يمكنه التقدُّم، نزلتُ وجدتُ جموعَ الثوَّار أمامي كنتُ غريبَ اللسانِ بينهم لا أجيدُ الهتاف التصفيق لكنَّنِي لم أحس بالغربةِ، بعد محولات قليلة أجدتُ التصفيق بينهم، وفجأة سَمِعنا صوت يعلمه الجميع، قنابل البمبان ، انطلق الثوار داخل الأحياء، وقفتُ لا أدري إلى أيّ اتجاه.. ضربني أحد الثوار في كتفي بعنف «يا سجمان.. تحرَّك بسرعة» أصبحتُ معه ومعنا مجموعة، فُتِح بابُ منزلٍ، سَيّدة تتوكأ على عصا أدخلتنا، وأغلقتْ الأبواب، تواصل البمبان فوق رؤوسنا. يغسلون أعينهم منه بالماء الممزوج بأوراق شجرٍ علمتُ فيما بعد أنَّها شجرة (النيم) مضاف له الخل المُخَفَّف. ما أعلمه عن عينيّ أنَّهُمَا صارتا كبراكين مغطيًا

وجهي بكلتا يدي؛ يضحكُ مَن معي عليَّ، وهم يسألون بعضهم مَنْ أكون قال أحدهم: «وقت البمبان وجدتُه واقفاً قلت له تحرَّك يا سجمان» .كنتُ اسألُ نفسي وسط احتراقي، ماذا تعني السجمان فِي اللغة العربية، تُقَال للدموع والمطر سجمت العين سال دمعها، وأنا أُطْلِقَتْ عليَّ قبل أنْ يُسيلَ البمبان دموعي، وسجمت السحابة، دام مطرها، أم سجمت عن الأمر.. أي أمر إذن؟ ربما يقصدون السناج والرماد. سمعتُ مِن أبي عند حديثة ذات مره عن تعابير الخطوب عند نساء السودان فيقلن (السجم والرماد) أو السناج والرماد، تقولها النساء عند الأهوال والمصائب، ويضعن الرماد على رؤوسهن، إذن ماذا تعني السجمان هذه التي لا تتوافق مع المعاني التي أعلم، هل الغريب عن الديار؟ . قطعَ حَيْرَتِي اللغوية أحدُهم أمرني بغسل وجهي بخليطٍ آخر؛ ليخفف ثورة وجهي، ففعلتُ. سألني أحدهم مِن أين أنت؟ أعطيتُه حقيبتي؛ لا أقوى على الحديثِ أو النظر، تتطوَّع أحدُهم بفتحها. كانت أوراقي وجواز سفري، قال أحدهم ضاحكًا: «أنت نظيف!» وانفجر الجميع مقهقهين حتَّى سَيِّدة الدار العجوز؛ فأدركتُ فيما بعد أنَّ النظيف تعني الحديث بالأشياء، أمَّا السجمان فقد جعلتْنِي أتذَكَّر أنني لم أخبركم أنِّي بطل مدينتي فِي الملاكمة منذ أنْ كان عمري سبعة عشر عامًا، وحتَّى عمر السابع والعشرين، وأمتلكُ ناديًا رياضِيًّا لتعليم الملاكمة. المقارنة بين اللقب الجديد الذي صرتُ معروفًا به بَيْنَ الثوَّار فيما بعد «الواثق السجمان» وميدالياتي المُعَلَّقة في بيتي تضحكني رغم مشاركتي في رفع الدبَّابة التي سقطتْ فِي (مصرف المياه) في العباسيّة أمدرمان مازال لقبي بَيْنَ الثوَّار كما هو. ظللنا فِي بيت السيِّدة، أكرمتنا بأشياءٍ كثيرة. الثوار ينادونها بأُمِّي.. سألتني

أين أهلك هنا؟ أخبرتُها بعنوان أخي وكُلِّي ثقة. قالتْ قريبٌ مِن هُنا، قال لي أحدهم ناصح لي في أي مكان افعل كما يفعل الثوَّار حتى تتعلَّم.. لو وقفتَ (الكجر) أقصد رجال الأمن (بلموك) تعني أنَّهم سيلقون القبض عليك. تعلَّم اللغة السُّودانِيَّة لو سمحتَ! وضحكوا مِن جديد. أحضرتْ السيِّدة صينيه مليئة بالأطعمة، لم نكن بحاجه لغسل يدينا؛ فهي مغسله بالخل وصفق النيم، همَمْنَا بمدِّ أيدينا سمعنا صوت رصاص عنيف، قفزَ الثوَّار وسيدة المنزل نحو الباب الكل يشير إلى اتجاه الصوت اختلفتْ الإشارات، انقسموا لجزأين مسرعين كُلّ فِي اتجاه.. ما سمعته أذناه التفت أحدهم للسيِّدة، قائلًا يا أمِّي النظيف لا تدعيه يخرجُ. وقفتُ مشدوهًا، تعلَّمتُ عند سماع الرصاص عليك الاختباء والاتصال بالطوارئ ماذا يفعل هؤلاء!! في وقفتي أتت مجموعة أخرى تلاحق الصوت. سألني أحدُهم فِي أيّ اتجاه صوت الرصاص، قلتُ لا أدري، وقف وقال: «ده غواصة» ردَّت عليهم السيدة «لا يا ولدي أنه نظيف واصل اليوم للوطن» قال وهو يتابع سيره مردد مقولتي «لا أدري!» متبعها (بيا سجمان.) سجمان مَرَّة أخرى. التفت متسائلا عما قاله السائل عن الصوت، أجابت السيدة العجوز قائله لا تهتم لما يقول. نظرت لعينيها معلنا رغبتي بالاهتمام أجابت باختصار تعني أنك تتبع للمستبدين. دخلنا للمنزل طلبتْ مني مواصلة الأكل، قلتُ: لا أرغبُ.. متى سيعودون؟ قالتْ لِي: مَن..؟ قلتُ لها: مَن كانوا معي ابتسمتْ قائلة: رُبَّما يعودون، ورُبَّما لا. قلتُ: هم أبناؤك؟ قالت: هم ثوَّار السُّودان، أنا لا أعرفهم كُلّ المنازل مساكنهم، وكُلّنا أمهاتهم، وأخواتهم الأبواب والنفوس والمال فداءً لهم.. قالت: سأتصل (بركشة)* توصلك لأهلك..

سائقٌ جَيِّد يجيدُ التحرُّك، ويتجَنَّبُ شوارع (الكجر) تصل سالم يا ابني، كَمْ أحببتُ هذه السيِّدة! فقلتُ لها: «شكرا يا أمي..» ابتسمتْ، ولم تزد. أوصلني السائق منزل أخي، طرقتُ الباب فتحت لِي امرأة لا يمكنُ تقدير عمرها مُرَحِّبَة، فقلت لها أريدُ رضوان خلف الله السدابي.

سألتْ «مَنْ أنت..؟»

صمَتُ

ثمَّ أردفت: «غير موجود.»

واصلْتُ الصمت، أعادتْ السؤال مَن أنتَ،

فقلتُ:» الواثق خلف الله السدابي»

هذه المَرَّة كان الصمتُ مِن نصيبها. انفجرتْ براكين الحزن فِي وجهها، وغُصَّة أغلقَتْ حلقها. أشارتْ لِي بالدخول، لم تتكلَّم معي أبدًا، بِتُ الليلةَ بينهم، لم يسألني أحد أيّ سؤالٍ، قامتْ على ضيافتي فتاة فِي عُمْرِ الجامعة، علمتُ فيما بعد أنَّها ابنه خالة رضوان. غرفة إخوتي سريران متقابلان، سألتُ نفسي أَيُّهُمَا سرير منير أيهما لرضوان؟ لكن قلبي يقول لِي أنِّي مستلقي علي سرير منير . ترحَّمْتُ عليه فِي سِرِّي، وغرقت في نومٍ لم أذق طعمًا مماثلًا له مِن قبل.

فِي الصباح وجدتُ بجانبي قد وُضِعتْ ملابسَ لشخصٍ في مثل طولي، أفوقه فِي الحجم، وصينية شاي مكتملة، لا أعلم أيْنَ دورة المياه. تحرَّكتُ نحو البابِ، قرعتُه مِن الداخل؛ لأُنَبِّهَ مَن في

الخارج، أتتِ الفتاةُ، سألتُها، لم تنطق، أشارت نحوه وفي وجهها ألف سؤالٍ؛ فأدركتُ أنّي الوحيد الذي نام ليله أمسٍ، تناولتُ الشاي. ارتديتُ ملابسي مِن حقيبة ظهري. أتيتُ مِن أستراليا فقط بحقيبة ظهر بها أوعية قليلة، شكرتُ نفسي على هذا التصرُّف؛ ساعدتني في التحرك السريع. قرعتُ الباب مِن جديد أتتِ الفتاةُ تحملُ ورقةً فِي يدِها ناولتني إيَّاها غارقة فِي بحور صمتها، قرأتُها ولاية سنار مدينة الرمَّاش، مستشفى الرمَّاش الحكومِي د. رضوان خلف الله السدابي. وضعتُها فِي محفظتي عند الباب قالتِ الفتاةُ «سافر اليوم لا توجد مظاهرات نهارِيَّة، فقط ليلية. أسأل مِن أجل الوصول، حاول الوصول قبل الظلام» وأغلقتْ الباب خلفي، رُبَّمَا توهَّمتْ أنَّ هناك ألف عينٍ ترمقني. أوقفت (ركشة) مددتُ له بالعنوان، قال مركبات سنار قريبة مِن هُنا، في شعبي أمدرمان.

(٢)

تبعد الرمَّاش مِن مدينة سنجة خمسة عشر كيلومتر، ثُمَّ بعد ذلك الطريق الترابي حوالي خمسة كيلومتر لداخل الرمَّاش. مَنْ في العربة ينظرون إِليَّ باستغرابٍ، ابتسمت ساخرًا، وقلتُ لنفسي رُبَّمَا السجمان مكتوبة فِي وجهي. سألتُ مَن بجانبي هل المستشفى بعيدة مِن هُنا قاطعني أحدهم «أنت ضيف غريب عن المنطقة أهل الرمَّاش يعرفون بعضهم البعض، مَن أقاربك «؟ قلتُ له أسألُ عن دكتور رضوان السدابي، صاح الجميع بمعرفته. قال «أحدهم أنتَ أخوه.. به ملامح منك.» لم ينتظرْ إجابتي، وطوال الطريق كان الحديث عن فضائل رضوان، براعته في مهنته، وخِفَّة ظله. تناولوا

حكايات له، وعشقه للجلوس بجانبِ النيل الأزرق. قال أحدهم: «لو مرض شخص في غير وقت عمله نعلم أين نجده بالقرب مِن (المُشْرَع*) أو تحت ظلال شجرة الزونيا. د. رضوان رجل مبارك لو لم يكن طبيبًا لكان شيخًا» ضحك الجميع . يتكلمون سريعًا لكن خلاصة ما فهمته أَنَّ رضوان السدابي محبوب هُنا. قال أحدهم «اليوم الاثنين الآن سيخرج من المستشفى إلى السكن ستصل قبله . أوقاته مضبوطة جدًّا» تَمَّ توصيلي إلى مكان إقامته، صاح أحدُهم لشخصٍ يقفُ أمام الباب، «شقيق دكتور رضوان..» رحَّب بِيَّ، وفِي عينه نظرة ارتياب. أدخلني غرفه بها شخصين، عرَّفَنِي بأخ رضوان، ألقوا عليَّ تحِيَّة اسمها تحية التشكيك فيما نُسِبَ لي. أحدهم طلب مِني الجلوس، والآخر قصد ثلاجة تقيم معهم في ذات الغرفة، مَدَّ لي قارورة ماء، وصمت خيَّم فِي المكان. أثناء شربي دخل أحدهم نظر لِي مباشرة، أحد مِمَّن فِي الغرفة قال له «ضيف لك..» وقفتُ، حوَّلتُ القارورة ليدي الأخرى، مددْتُ اليمني قائلًا الواثق خلف الله السدابي، مَدَّ يده لِي مصافحًا، وأشار بالأخرى نحو باب الخروج، ولم يلتفتْ لزملائه فِي السكن. سلكنا طريق الكُلّ يُلقِي علينا التحية، الرمّاش جميعُها علمتْ بوصولي، يعانقونني بحرارةٍ وحبٍّ، كعناقهم لأخي، دعوات الغداء تنهال علينا ورضوان يراضي الجميع بوجهٍ باسم رغم سحابة الغضب التي يحاولُ إخفائها يعتذرُ لهذا، يُمازحُ هذا حتَّى وصلنا النيل، قلتُ لنفسي رُبَّمَا سيقتلني، تذكّرْتُ قول رجل المركبة «إِنَّه رجلٌ مبارك» جلسنا صامتين، لم أستطع أنْ أفتحَ فمي بكلمةٍ. جلوسنا قارب الساعة، والشمسُ تميلُ إلى المغيب، نهض رضوان ومشى إلى داخلِ النهر مسافةً، إِبْتَلَّ بنطاله إلى ما فوق ركبتيه، أصابَني بعضُ الخوفِ، هل يودّ أَنْ يُغرِقَ

نفسَه، لو تقدَّم أكثر مِن ذلك؛ سألحقُ به. رأيتُه ينحني للنهر، ملأ كفيه بالماء، ابتسم! ثُمَّ حدَّق فِي الماء الذي فِي كفيه مندهشًا أولًا، ثم مبتسمًا، مدَّها لي وصلتني حفنة ماءٍ، غسلتُ بها وجهي، وهو ينظرُ لِي، مسحة الغضب لا أراها الآن. لمن أبتسمْ؟ وصمتُنا مازال مستمرًا، فجأة علا صوت معدتي تصدر أصوات، إنه صوت الجوع لم أسمعة طيلة حياتي . قطعت صمتنا، قلتُ معتذرًا: «لم أتناول طعام منذ ثمانيه وأربعين ساعة منذ قدومي مِن أستراليا، فقط كوب شاي في منزلكم، هذا الصباح.» أشار إلى طريق العودة، وهو صامتٌ، وأنا أزجر فِي معدتي، ضاعت الكلمات مِن لساني، فقامتْ معدتي باللازم، وضع أمامِي صحنًا مِن الفول، وكأسًا مِن الزبادي قال: «لا أدري ما يمكنك أكله.» أتاني بماءٍ لأغسل يدي وجدني قد ذهبتُ بنصف صحن الفول؛ رأيتُ ابتسامةً طفيفةً على وجهه، قلتُ له: «لن يصيبني شيءٌ وإنْ أصابني؛ ستعالجني.. أليس كذلك؟» لم يرد لكن أسارير وجهه كانت هادئة، أجهزتُ على صحني. تشاغلَ بهاتِفِه عنّي، تناولتُ كأس الزبادي، ثُمَّ حمدتُ الله فِي سِرِّي. مدَّ لي بقارورة ماء شربتُها . تجدَّد همي من جديد ماذا سأقول معدتي أنقذتني المَرَّة الأولي، ماذا سأفعلُ الآن حزمتُ أمري وقلت بعربيتي الفصحى تلك «علمت بوجودكم قبل شهر و(١٢) يوم خلف الله السدابي أعطاني العنوان» مجرداً أبى من لقبه احترامًا لمشاعر رضوان

رفع رأسه «متهكمًا يحفظ عنواننا أشكره نيابةً عَنَّا. حفظه لعنواننا هل سيشفعُ له إهماله لنا؟»

هُنا أدركتُ أنَّ رضوان لن يغفرَ له..

(٣)

شهرٌ واثنا عشر يومًا، كلماتٌ ألقاها الواثق على أذناي، أحسستُ بشعورٍ جديد، هذا الذي في نفس عمري ترك ما بَيْنَ يديه؛ ليبحث عني تنهدت تنهيدة داخلية، وقرَّرْتُ أنْ أعمل بوصية الأزرق (ستعلمون الوصية لاحقًا في خطابي الثاني لطل)، خرجنا مِن المطعم الذي عاتبني جميع مَن فيه كيف أطعمه مِن مطعمٍ، وكل المنازل مفتوحة لنا، وأنني أخجلهم وأصَغّر منهم أمام أخي. أبتسمُ فِي وجوههم معتذرًا واعدًا بالحضور إلى منازلهم.. لا يدرون ما بي، إنَّه أخي الغريب الذي علمتُ بوجوده الآن، لكن أصدقكم القول لم أحس بضغينة تجاهه، ولا أنَّه غريب عني، ملامحه لا تشبهنا ، لكن يتحدَّث بطريقهِ منير الهادئة، وحديثه باللغة العربية زادها هدوءً ووقار. أخي كان يأكل أمامي بنهمٍ يدُلُّ على جوعٍ فادح قد أصابه، طريقته جعلت داخلي يبتسمُ. لماذا لم تعطه أُمِّي العشاءَ؛ تذكَّرت أنَّه ابن زوجها الذي هجرها.. حمدًا لله أنَّها لم تضع له سُمًّا فِي كوب الشاي الذي ذكره، ماذا كان شعور أُمِّي؟ لماذا لم تتصل لتُخْبِرَني؟ .

قصدنا مكتب اتصالات لشريحة محلية، وأخبرتُه أنَّ شبكة الاتصالات محجوبة نستخدم تطبيقات فك الحجب في السكن، يوجد انترنت أرضي سنملكك الرقم السري الخاص به، رجعنا إلى الغرفة، قصصتُ عليهم لأنَّ معرفتهم بِيّ لصيقة جِدًّا، يعلمون أَنَّ لِي أخًا واحدًا فقط توفي قبل عام. قصَّ عليهم الواثق ما حدث له مِن المطار لأمدرمان بلغة عربية فصيحة أضحكتْ الجميع .تركوا قضية أنَّ لِي أبًا لا أعرفه، وأخًا التقيتُ به اليوم فقط، ومشاعري

المرتبكة، ليقول خالد الزميل الذي ألقى عليَّه تحية التشكيك الظاهرة. سيحدثُ إرباك تخيَّلُوا نص الهتاف (الحرية للواثق السجمان أخ رضوان)، ضجَّ المكان بالضحكات قال الواثق منذ وصولي للسُّودان، وأنا أتعَرَّض للتنمر؛ في استراليا يُعَاقب المُتَنَمِّر بعقاب العمل الاجتماعي. وجموا جميعًا ثانيةً، تحدَّثُوا بسرعةٍ، إنَّها لغة عربية، لكن لم أفهم منها غير أنَّهم أضافوا للملفي لقبًا جديدًا أبهجهم أكثر. ولا يمكنني إخباركم به. ذهبوا للمستشفى، وهم فرحين بي، وأنا فَرِحٌ بهم! اتصلتُ بزوجتي، وجدتها قَلِقَة جِدًّا، أخبرتُها أنَّي الآن أجلس في سرير أخي؛ بكت مِن الفرحة سألتْنِي هل أخبرت أبي «اتصل بأبيك، وعُدْ لي» وأغلقت الهاتف اتصلتُ على هاتف أبي، لم أجدْ ردًّا تذكرت جدول العناية بأبي كان يوم كمال، اتصلتُ عليه ردَّ بتردُّد، أخبرتُه أنّي بخير، مِن تردده أيقنتُ أنَّ الكُلَّ أصبح يعلم، أو كمال يعلم مِن قبل لا أدري. طلبتُ منه أن يعطيني أبي، سألني كيف حالك يا الواثق لم أجب على سؤاله، وقلتُ له أنا مع رضوان أخي فِي غرفتِهِ، وهو بخير سمعته يحمد الله، ولم أسمعْ ما تبقى مِمَّا قاله اختلط صوته بغصته، سمعتُ صوت نشيجٍ عالٍ أُغْلِق الهاتف على إثره.

الآن ثلاثة أيَّامٍ معه، رضوان ملامحه أقرب للي كثيرًا، لكن ضحكته كأبي لم يسألنِي عن أبي أبدًا، وأنا لم أستطعْ أنْ أقولَ شيئًا عنه، نعيشُ كإخوةٍ تربَّينا معًا، كأنْ لم تفصلنا سنواتُ جُبْنٍ، وانعدام مسؤولية مِن أبي. حياتي معه فِي الرمَّاش خَفَّفَتْ مِن غضبي على أبي كثيرًا. أخرجُ فِي المسيرات الليلة معهم يجهزون للقافلة الرمَّاش، المُنضمة لميدان الاعتصام، سأنضمُ إليهم، وبعدها أرجع إلى أستراليا.

رجعْتُ للسكن وجدتُ الواثق فِي انتظاري نظرة لِي عند قدومي مِن عملي تفرحني علاقته بأهل الرمَّاش، أصبحت قوية جِدًّا يقلدونه فِي حديثِهِ بمرحٍ. جلسنا معًا نتحدَّث في رجوعه مِن الرمَّاش للخرطوم مع القافلة، ثُمَّ بعد ذلك رجوعه لأستراليا، يحدِّثُني عن حبِّه لوطنه، وتفكيره الجاد فِي الرجوع للسودان اتصلت سناييت أثناء حديثنا تركتُه، وذهبتُ إلى سريري.

طمأنتْنِي سناييت أنَّ أبي بخيرٍ، بالأمس كان يوم رعايته على للي تحدَّثَتْ معه بهاتفها أخبرته أنَّك ورضوان تقيمان معًا فِي حبٍّ واتفاق، قلتُ لها أخشى أنَّ رضوان لن يغفر له.. وجودك معه قد يساعد على ذلك، أثناء مكالمتي دخل عليَّ هاتفُ أُمِّي، قلتُ لها أُمِّي تتصلُ بِيّ لم تفعلها منذ وصولي للسودان! اتصلُ عليها وأعود لك.. خاطبتُ أُمِّي مُحييا لها قالتْ دون مقدمات والدك توفى الآن. انقبضَ قلبي عيناي امتلأتْ بالدموع التفتُ لا إرادِيًّا أبحثُ عن رضوان أأخبره أم أصمت؟ سألني ما بك؟ قالتْ تُوفِّي أبي الآن.. سَمِعَ أحدهم ما قلتُ فرفع لنا يديه مُعَزِّيًا، رفعنا أيدينا أنا ورضوان معًا الرمَّاش بكاملها أتت؛ لتُعَزِّي د. رضوان فِي فَقْدِ أبيه أقيم له عزاءٌ لم يُقم فِي بيته الذي عاش فيه في كانبيرا، رضوان يتلقى التعازي فِي والدٍ لم يره فِي حياتِهِ فقط أبوة أوراق ثبوتِيّة. صور العزاء فِي الرمَّاش رسالتي أرسلتها لأمي، أم رضوان دخلت فِي عِدَّة أبي المتوفَى. رسالة أبي القاسية التي فاجأ بها أُمِّي.

ألسدابي فِي غرفة العمليات قالتْها سناييت؛ كيف لمتوفَى أنْ تُجْرَى له عمليه بعد موتِهِ، مُتحيرٌ هل ستتبرعُ أُمِّي بأعضائه؟ باكية لا يمكن دفنه، لا أحد يدري متى تُوفِّي، وُجِدَ على كرسيه المتحَرِّك

مُتوفَى، جسمه اتخذَ وضعية الجلوس، وتيبس اختارتْ شقيقتك، أنْ تعدل جسده؛ لأنْ تتركه ٢٤ ساعة ليرجع جسدَه كما هو بفعل التحلل؛ لذا تطلَّب الأمر إجراء عملية؛ لتصحيح جسدَه، وسيدفنُ بعد ذلك سنايت تبكى أبي، تُحِبُّه جِدًّا رغم قِصَر الفترة التي تعرَّفَتْ عليه فيها زواجي لم يكمل العام أجدها دومًا برفقته تناديه أبى بِلَكْنَةٍ يحبُّها، لكنها تغضبُ أمِّي، سمعتْها هنا في وطني، الكل يقولها بطريقةٍ تحملُ الاحترامَ والحبَّ .

لم أخبر رضوان بما حدث لخلف الله السدابي تركهم وحيدين، وماتَ وحيدًا، روحه حبيسة دواليب كرسيه المُتَحَرِّك، أهي صدفة قدرٍ، أو دَيْن عليه حان وقت سداده؟ ماذا رأى لحظة انقباض روحه؟ ضحكاتنا حوله، أو بكاء رضوان، ومنير فِي نسيانه. حلوانا نلتقطُها مِن بَيْنَ يديه أم أيديهم التي تتمَنَّى مسَّ يديه. ماذا رأيت يا السدابي أُمِّي بجمالها الصارخ، وجبروتها أمْ أُمّ رضوان، وبحور حزنها العميقة. أُمِّي تُمَشِّطُ شعر قِطَّتَها،و أمّ رضوان تضع الخيط مع الخيط؛ لتصنع قوت أبنائها. أبي ماذا فعلتَ بنفسِكَ.. رضوان يتلقى عزاءَك، ولا أدري ما هي مشاعره نحوك، أراه دامع العينين أحيانًا؛ أيبكيك أمْ يبكي نفسه؟ وجدَ نفسَهُ فجأةً يُعَزِّيه النَّاسُ فِي أبٍ لم يره، أو يسمع عنه. ليلًا ننامُ بالقرب مِن بعضنا كإخوة منهكين، أنا أحتضن بقايا ابتسامة أبي، ورضوان عيناه مُتَعَلِّقَة بالسقفِ، ثُمَّ ينامُ.. كَمْ أشعرُ بألمِكَ، وحزنك يا رضوان أخي.!

وجهٌ عَلَى جِفْنَة ماء

عزيزتي طل التاج:

أعلمُ أَنّي قد كتبتُ لك في الرسالة السابقة بأَنّي أغادركم أنتِ، وأخي، وأُمّي.. ندمْتُ على كتابتي لتلك الرسالة، إذا وصلتُ الرمَّاش قبلها؛ لما كتبتُها أبدًا. هذه القرية عند لا محدودِيَّة الجمال الكونِيّ! وطأتْ قدماي ثراها، تسرَّب غذاءُ أرضِها الخصيب فورًا إلى أقدامِي، وسائر جسدي كإكسير حياةٍ مُقَدَّسة لا ألم، ولا حزن، ولا كراهية. سماؤها ليس كباقي السماوات التي رأيتُ، تناجيها تناجيك تحسُّ بيدها ترفعُك لأعلى مراتب صفاء الروح، ويقينُ الحُبِّ. الآن لي فيها ثلاثة أشهر، هي عمرٌ جديد لا أَتَذَكَّر رسالتي القديمة إليك التي لَمْ يأتْنِي ردٌّ عليها، أو رُبَّما لا يستحقُّ ما فيها أنْ يُرَدُّ عليه. الآن أراني مقهقهًا ضاحكًا، وأقولُ لنفسي فِي أي ظُلُماتٍ كُنْتَ.

طل ...أتعلمين أنَّ اسمَكِ يليقُ بهذه القرية الفارِهة الجمال؟ سُمّيتْ بالرمَّاش، سألتُ التجاني زميلي فِي السكن، وكنتُ قد أضمرتُ فِي نفسي أَنَّ لاسمها علاقة بالعين، ورمشها، قال لي هناك

مقولات كثيرة لكن أفضل ما قالته جدتي لي كانت قديمًا غابة كثيفة جِدًّا، فكُنَّا نقول نمشي محلّ (الريم ماش) فصارت الرماش كان غزال الريم يملأُ الأنحاء، والنَّاس كانت عيونهم تكتحلُ بالريم صباحَ مساءَ قفزاتها، وثباتها، مضغها لعشب أنبتَه اللهُ لفمِهَا، وماء زلال لشربها، أُنَاس صفاءهم كلون عينها حين هدوءٍ، وهي تهزُّ ذيلها القصير بإعجابٍ. هنا الأرض محجوبة عنها السماء بأشجارٍ مباركةٍ، ظلالها تُغَطِّي الأرضَ، ترسم قصصًا وحكاياتِ شعبٍ لا يُكَدَّر محياه. تتلصص السماء للأرضِ خلسة بَيْنَ أوراق الأشجار؛ فتتحدا في لقاءٍ نوراني بين سماءٍ وأرضٍ تكتسي خضرة وحكمة أنبياء، أناسٌ بَيْنَهُم أنا أخوهم، وطبيبهم، وهم ترياق وحشتي التي كادتْ أنْ تفقدني عقلي، متاهات روحي، حبي، وكراهيتي تغيَّرتْ رؤيتي لِمَا حولي. بالأمس عندما وصلتُ السكن وجدتُ ضيفًا فِي انتظاري، شخصًا ملامحه أعرفها، ولا أعرفه، مدَّ يدَه فِي تردُّدٍ، وقال الواثق خلف الله السدابي، خرجَ اندهاشي مبتسمًا. الكُلُّ ينظرُ إلينا بتعجُّبٍ، خرجنا صامتين، مشينا صامتين حتى المشرع، وجلسنا على ضفة الأزرق صامتين. سرحتُ فِي المشرع وجماله أُرَدِّدُ قصيده العبَّادِي فِي سِرِّي، وكأنِّي أرى (هنده) والحسناوات، وارتواء العبادي* بكفوف الحِسان العفوية.. هذه هوايتي الجديدة منذ أَنْ عشقتُ الرمَّاش لا يكتملُ يومي إِلَّا بالوقوفِ فِي المُشْرَع أتَأَمَّل جنة الأرض بمائها الصافي. تقدَّمْتُ لداخل الأزرق؛ لأغسلَ وجهي عند انحنائي، همسَ الأزرقُ فِي أذني:

بِكَ النفوسُ تصفى

يا معالج المرضى،

والقلوب ترضى..

يا خضرة الممشى،

للريم وقت يغشى!

يفرح الأحباب، وكل الألم ننسى..

ابتسمتُ للأزرق شاكرًا له النصح مقررا (كل الألم انسى)، ملأتُ كفيّ بالماءِ، أتعلمين مَن رأيتُ عليها؟ رأيتُ وجهَ منير ، صببتُ الماءَ علي يَدَي الواثق خلف الله السدابي؛ فغسل وجهه بوجه أخيه.

معي الآن منذ يومين، وكأَنَّنَا نعرفُ بعضنا، ولم تُفَرِّقْنَا سنواتُ إهمال أبي لنا.. لا يشبهنا لكن صوته كصوت منير، يتحدَّث فقط اللغة العربية بطريقة تثير الضحك. قال أنّه علم بوجود إخوة له قبل شهر، واثني عشر يومًا فقط السدابي علم موت ابنه بعد عامٍ، أيّ أبٍ هذا؟! الواثق لا يأتي بسيرة أبيه أمامي، لكن أحسُّ أَنَّه أخٌ لِي. أعتذرُ لك عمَّا كتبتُ فِي الرسالةِ الأولى، وإسهابي في جنوني ومتاهات روحي..

تحياتي..رضوان السدابي

*الشاعر إبراهيم العبادي، من شعراء الحقيبة في السودان، وأشهر قصائده يا سائق الفايت.

مسافات الحب

(١)

«أيّهُما ناجين؟» مشيرة لتوأمنا خاطبتني ساشا مبتسمةً، اندهشتُ، قالتْ منذ أنْ أخبرنا الطبيب بأنهن بنتان أيقنتُ أنّك ستسميهن najin وfatu الحياةُ السعيدة، والجمال.. طفلتان رأيتُ فِي عينيهما كنوزَ سعادتي الخَفيِة التي أنستني نظرات الحزن ليُتْمِي، ونظرة لا تقهر، عصافير الجنة تحيط بي، ريشُها الملون يتساقط علينا كزخَّاتٍ ملونة مِن فراديس السماء. ضممتهن لصدري لا أدري لِمَ تذكرتُ خالي الشفيع وعناقهFatu تشبه والدتك علَّقتْ ساشا وnajin تشبهني.. ماذا تعنين ضحكت قائلة: «لكن للاثنتين حاجبيك وعينيك» فقلتُ: «إذن يشبهان أبي..» قالتْ له الرحمة، صمتُ لم أقل لها لم أعنِ والدي النعيم، أقصد خالي لا أدري لِمَ رُبَّما أحسسْتُ بما افتقدَه أبي، إنَّه لم يرني، ولم يحملني على

يديه، لم يرَ طيور الجنة حواليه.. الآن عذرتُ عمَّتي منى ببكائها، ورائحته، عذرتُ كُلّ شخصٍ نظر لِي نظرة الحزن، تأسفتُ على أبي سالت دموعي، لا أدري هل هي دموعي على فقدان أبي أمْ دموع فرحي بزهراتي، كما يقول رضوان دموع الفرحِ هي طل المآقي. أمي سعادتها لا توصف، ضمَّتْها لها بحبٍّ، تقول هما بنتاك، وإخوتك الذين لم أنجبهم لك. اعتذر خالي مُتَعَلِّلاً بيوم مناقشة رسالة الماجستير الخاصة بزوجته، ووعدني أنَّه سيأتي لاحقًا.. لَمْ يأتِ أرسل لي فيديو استلام المعز الثاني لشهادة تفوقه في المدرسة، وصوت ابتهاجه مشجعًا له على السير للأمام فخورًا به، صوت أبي الذي أعرفه يبعثُ في دواخلك البهجة والحبور. قلتُ له لك ابنتان هنا؛ ضحكَ قائلًا لهم أبٌ إذا لم يحسن الاعتناء بهم ستتمُّ معاقبته بشدَّة، أو رُبَّمَا أُلْقِي به في حوض أبنائه، استثماراته، تماسيحك الصغار. قلتُ له يا لهم مِن أبناء ماكرين! بعد يومين سنبدأُ أوَّل عملية اصطياد لهم، بلغوا عمر الثامنة. في السنين السابقة كان بيعُ القليل مِن بيضها يساعدنا فِي نفقات المزرعة العالية، الطعام، والنظافة مزرعتنا الأشهر في إنتاج البيض ٥٠ بيضة للتمساح الواحد نحتفظ بعشرين، ونبيع ما تبقى؛ لتدخل للمزرعة ما يُقارب ٦٠٠ دولار يساعدنا فِي دفع النفقات الكبيرة للمزرعة. الأرباح الحقيقية ستبدأ بعد يومين، اتفقنا مع شركة تصدير للعمل على تصدير لحوم التماسيح، التمساح بـ ٢٠٠٠ دولار، الجلد بـ١٢ ألف دولار، المغامرة شكَّلتْ سنواتنا السبع فرحي بجني الثمار كان شاسع لكن حبوري بناجين وفاتو كان الأروع

(٢)

انطلقتُ إلى محمِيّة Ol PEJETAعندما علمتُ بتدهور صحة سودان هذه المَرَّة لم تكن رحلة للتساؤلات، كانت للدعاء أنْ يكونَ بخيرٍ وجدتُ جسده الضخم معانقًا للأرض عناقًا لا فكاك منه. جميع مشاعر الحزن والفقد تملكتني، ضاق صدري علي قلبي، ولا شيء يُقَال، جلستُ بجانبه هذه هي المَرَّة الثالثة التي أزوره فيها طيلة إقامتي في كينيا التي تخطوا نحو السنة التاسعة ، وأتمَنَّى أَّلّا تكون الأخيرة، وضعتُ يدي علي جسدِهِ الجاثي أمامي بهدوءٍ، وشكل جرح ساقه يخبرك بمدى تألمه. إدارة المحمية قرَّرتْ الموت الرحيم له بعد يومين، نبضه ارتفعَ قليلًا، لمحتُ أضواءً تُغَطِّي جسدَه، اقتربتُ أكثر، لم أرَ تجاعيده، وثناياه، طبقات جلده القاسية التي عهدتُها. اقتربتُ أكثر خطوط وثنيات جلده المتجعدة تتشكَّل كأنَّها لوحةٌ ما، دققت النظر نُقشت على حواف جسده المسجى كائنات بشرية، أشكالها غريبة، أجسادها شفافة، تظهرُ قلوبهم، نبضها والدماء فِي أوردتها، لونها السواد.

يحملون فِي أيديهم البريق، تقفُ خلفهم سفن ضخمة غريبة الأشكال، ترفرف رايتها مِن بعيد، أغمضتُ عينيّ، ثُمَّ فتحتهما؛ لشكِّي فيما أرى، وجدتُها كما هي، وجبال عالية تظهر عليها صور وتختفي، كلمات تختفي؛ لتعود مَرَّةً أخرى كأنَّها شاشات عرض مضبوطة التوقيت لأُناسٍ أعرفهم يعتنون بأرضهم، ثمارها يتقاسمونها بينهم، حلقات مِن الرقص والغناء، عرفتُ رقصة الكيفديو الكينية. الكُلُّ مبتهجٌ، وفجأة ارتفعَ صوتُ الصراخ والعويل، صرخت الفَيَلة متألمة، النمور والفهود ضجَّت. تجاعيدُ

سودان بعنف أمامي، رأيتُ الغبار صاعدًا فِي الأجواء، اختبأتِ العيونُ والرقصات خلف التلال والأشجار. رأيتُهم تحتَ ظل شجرة الباوباب المُعَمّرة يضعُ فِي عنقها عقدًا مِن أزهار الجازانيا البيضاء، وانحني؛ ليضع قبلةَ الحبِّ فِي فمها، في مسافة الحبِّ صاحتِ الأشجارُ والمياه والحيوان، الصيَّادون قادمون، فزعتْ طيور الجنة، غَطَّى خوفها السَّمَاء. انتزعوها مِن سمو الحبِّ، باعها الصياد للغريبِ ثمن الحسناء بندقيتين و١٠ لفات مِن القماش، وباعوه بِصُرَّةٍ مِن البارود. وضع أصحاب الأجساد الشفَّافة والقلوب السوداء الوشم بالنار فوق رقابهم يعلنون امتلاكهم.. مات في منتصف الطريق فألقوا به ومعه المئات في المحيط، شاهدت عيناي حبّه، موته، والضياع، سالتْ على خدي الدموع، رسمتُ التجاعيد مَرَّةً أخرى، تلال على بطن سودان دققتُ النظرَ، إنَّها الأفيال بلا أنياب، ونعام بلا كساء، والنمور الفهود بلا جلود، والأرض نحيبها يصمُّ الآذان.. الغرباء يخادعون، يلوثون العقول البكر يملؤون النفوس بالإدهاش، والأطماع لأُناس حياتهم الحبّ، وشراكة الأشياء. علا نبضُ سودان قليلًا تغيَّرت النقوش والرسومات الغُرباء يقفون على الحواف، اختفتْ قلوبهم السوداء، هياكلهم الآن بلا قلوب، سفنهم أصبحتْ أساطيل ترفرفُ فوقها رايات نقشوها، طُبِعت بالنار على الأعناق والظهور، طلبوا الآلاف مِن العاجيين تساءلت العاج الأبيض أعلمه، أفيال وأنياب قرون إخوة سودان، ماذا يقصد بالعاج الآخر؟ كأنَّه سمعني رسمتْ التجاعيدُ إجابة سؤالي، مزارع لقصب السكر، ومناجمَ يعملُ بها مَن أعرفهم فِي أرض ليست أرضنا، وعلى رؤوسهم يقف مَن يحمل السلاح والسياط، يرغمهم على المهام، قطرات جبينهم تساقطتْ

في أرضٍ ليستْ لهم. دموعي تساقطت مِن هَوْل ما رأيتْ، يُربَطون فِي الأشجار، يُضربُون بالسياط، يُلْقَوْن في حظائر المواشي بلا طعامٍ، دموعي كأنَّها تعلمُ طريقها بين التجاعيد، أماكن تعلمها لتستقرَّ في بحيراتٍ في الغرب والجنوب. كنتُ أظنها بحيرات ماءٍ، هبة مِن الأرض والسماء فوجدتُها بحيرات الحزن والأنين، حولها أجساد مقطَّعة، أجزاء بعضٍ منها حمله الغرباء؛ لتكون شاهد له عند مرؤوسيهم بأنَّ رصاصهم لم يذهب هباءً، هذا العاج الأسود، رفض الطاعة والانصياع. الصيَّادون مِنَّا يسترون أجسادهم الشفَّافة وقلوبهم السوداء بملابسنا، يخادعوننا، لا نعلمهم، باعوا قلوبهم للغريب، يعيشون بيننا يأكلون معنا، يضاحكوننا، ويقبضون أثماننا مِن الغريب.

في المنتصف بَيْنَ بُحيرة الأحزان، وتلال الأجساد المُقَطَّعة نفقٌ مضاء، تقفُ بجانبيه هياكلنا، وبعضها تشبه الغريب. شفَّافة أجسادهم، قلوبهم سوداء احكموا ملابسهم حولهم؛ ليخففوا مِن حِدَّة السواد، مَن هؤلاءِ؟هل هُم الصيَّادون الجدد أم غرباء جدد؟ على طول النفق مِن كُلِّ اتجاهات الريح يوصدون الأبواب يحملون البنادق، والسياط، وبركة جديدة مِن الدموع.

ما هذا يا سودان؟ أيّ جداريَّة ألمٍ ترسمُهَا على جسدِك لي في نزاعك الأخير!

أهو مستقبل أمْ ماضٍ؟

مِن أيْنَ عرفتُه وأنت لم تشهده، أو مستقبلٍ لن تراه؟

تغيَّرت خطوط التجاعيد؛ لترسم الإجابات لسؤالي المذعور،

أسلاف الرياح يا المعز قد نحتتها على الجبال والأشجار، وطبعتْها على الأرض والمياه، كتبتها بحروفٍ متجددة على امتداد أفق أرض العاج مع الأمطار، تتساقط علينا كُلّ عامٍ لتوثق كيف أصبحت أرض فُطِرتْ على الحبِّ، أرض شتات وضياع. لم يكن يعرفون كلمة السّلام؛ لأنَّهم يملكون ما هو أجمل مِنها، يملكون ما فُطِروا عليه أوثادو* مابنزي*، سويويا* الحبُّ*، ني نيفي*، اري يني هوك*. تلَوَّنتْ التجاعيد بآخر الأنفاسِ؛ لتخلق أطفالًا يرسمون الأنياب للأفيال، والريش للنعام، يلصقون ما تبقى مِن الأعضاء مع بعضها، والبسمة علي وجه بحيرة الدموع. تحرَّكَتْ صور الجبال، كأنِّي أرى تقنيه الهيلوغراف، رقصات تضربُ الأرض وترتفعُ لعنان السماء لوجوه ابتساماتها ناصعة البياض، حيوانات تُحَلِّق مع الطيور؛ لتملأ جِداريَّة العاج بالأزهار، وقطرات المياه، والنفق فِي المنتصف مازال مضاءً.

خرجتْ أنفاسُ سودان: ١٩ مارس ٢٠١٨ الكُلُّ وقفَ وقفة الحداد إنسان، وحيوان، الصمت الحزين خَيَّم على مَحْمِيّة اوبيجيتا التي قضي بها سودان السنوات الأخيرة مِن عمره، ابنته وحفيدته أطلقن صيحةَ الوداع، اصطكَّت لها الآذان.. نهضتُ متثاقلًا لهول ما رأيتُ، وألمي الفادح عليه. نظرتُ إلى جسدِهِ، عادتْ تجاعيده كما هي ثنايا، وطبقات سميكة بفعلِ الزمان والأسفار ، أضواء الكاميرات تضئ المكان موثقة لرحيل آخر ذكر وحيد قرن أبيض على سطح الوجود يُسَمَّى سودان .

* كلمة حب ببعض اللهجات الإفريقِيّة المحلية.

زبدة الأبنوس

استوقفني أحدُ الزملاء، وأنا أهمُّ بالخروج مُوَدِّعًا آخر مريض في دوام عملي النهاريّ، يحملُ مظروفًا فِي يده. قال طرد لك د. رضوان، تذكرتُ طل رُبَّما كان ردًّا علي خطابي الأوّل. خطابي الثاني أرسلتُه بالأمس، لم يصلها بعد رجعت لمكتبي مَرَّة أخرى، المُرسِل شخصٌ لا أعلمه، الهادي الحاج الخضر، فتحته، وجدت خطابي بداخله، قلَّبْتُ أوراقه، إنَّه خطابي كما هو خلف الصفحة الأخيرة وجدتُ ما جعلني أرفعُ رأسي للسماء شاكرًا لقد تمنيتُ أَنَّنِي لم أكتبه بعد وصولي للرمَّاش، ولم أكن أعلم أَنَّ القدر قد حقَّق ما تمنيتُ، ما كُتِبَ خلف الصفحة الأخيرة مِن الخطاب. لم أغضب لفتح أحد ما خطابي، وانتشار متاهات روحي بَيْنَ الناس، رُبَّمَا فرحي أنَّ طل لم تقرأها كان السبب، وفهمت مَنْ قرأ الكتاب مِمَّا كُتب هم شخصان مَن راسلني الهادي الخضر، وشخصٌ آخر. سأتصل بهم لاحقًا. لا أعلم التفاصيل، لكن ماذا تعني طل بمعزتي في قلبها مِثل معزة

منير ، وماذا تعني بمثلها؟

انتهتْ أيَّام العزاء فِي الرمَّاش سافرنا أنا والواثق لأمدرمان. أُمِّي فِي عدّة المتوفَى، وتتلقى التَّعَازِي فِي شخصٍ لم تره منذ ثلاثين عامًا، ولن تراه مَرَّة أخرى. ابتسمتُ فِي وجهها قائلًا أنتِ تمزحين، ردَّت: مَن عرفتُه خلال خمسة أعوام شخص طيِّب جِدًّا لم يغضب فِي وجهي أبدًا. كانت أجمل أيّام عمري. أَلَمْ ينسِك شقاءك، فقرنا حرماننا مِن أبٍ فوق رأسنا، عمل منير وهو طفل، وموته.. أعوامك السعيدة يا أم رضوان؟ أُمِّي هذا شأنك

تلقيتُ العزاء في شخصٍ لم أره، ولم أسمعْ صوته، فقط رفعتُ يديّ للدعاء له مئات المرات، ولا أدري لمَن كنتُ أناجي ربي، مشاعري نحوه محايدة لا حبّ ولا كراهية، هو مَن يُطلَق عليه أب الأوراق الثبوتية، وسنوات سعادة أُمِّي.

(٢)

لقد أخبرتُ طل بأنَّك تود خطبتها، وقد أبدتْ الموافقة. تذكرتُ ما كُتِب خلف خطابي أنَّ معزَّتي مِن مَعَزَّة أخي منير .. ماذا تعني طل؟ التزمتُ الصمت صمتي أَسرَ أُمِّي يعني أنِّي أوافقها فيما تسعى، وحَيْرَتِي وأسئلتي هل يمكن لقلبٍ أنْ يحبَّ شخصين فِي نفس الوقت أمْ المعزَّة تعني الاحترام والتقدير؟ لكن لا يمكن أنْ تجعلني أنا وأخي في مرتبة أو مقام واحد متشابه ماذا تقصدين يا طل؟ لم تطول حيرتي، مساءً حضرت طل وأُمّها وشقيقها؛ لتعزيتنا فِي وفاة السَّدابي، أسخرُ مِن نفسي عندما أجدها قد كساها الحزن

والتأثر المصاحب لرفع اليدين، أهو نفاق أم فطره مشاعر ابن وأب، أب وابن بغض النظر عن أنَّها كانت مسميات فقط، أو واقع حياة. لغة أخيها أصبحت أقل حِدَّة، أو مسالمة بعض الشيء، هل أخبرتهم أُمّي؟ هل وافقت طل؟ هل أخبرته طل؟ ستفقدني عقلي هذه الطل؛ أصبحت أدور فِي حلقة أسئلة، قلَّت حِدَّتي تجاه أساس الموضوع عندما ألقتْه أُمَّي في وجهي. أوَّل مَرَّة كانت ثورتي عفويّة وغضبي جامح، اليوم أدور فِي حلقة أسئلة، يمكنني حسمها لو أردتُ بأنْ أتجاهل ما لا أرغبُ في حدوثه، لكن هل لا أرغبُ فِي حدوثه حقًّا؟.

تعرَّفتْ أسرتها بالواثق، طل تنظرُ لي بعيون تتلألأ بغشاءٍ خفيفٍ مِن الدموع. صحتُها فِي تَحَسُّن، اِخْتَفَى وهنها، اختفتْ هالة الحزن التي كانت حَوْلَها؛ لتصبح بصمةً خفيفة على ملامح وجهها. غادروا مودِّعين التقت نظراتُ حَيْرتِي بنظرتها الدامعة التي لم أفهم معناها.

قال الواثق: «هل بإمكاني أنْ أطرح سؤالًا؟»

تنهَّدْتُ وقلتُ: «تفضَّل»

قال: ماذا هناك»

انفجرتُ ضاحكًا واستطردتُ:

«يا ابن أبي أُقسمُ لك أنِّي لا أدري ماذا هنا، وماذا هناك؟»

قال بثقةٍ: «هي تَكِنُّ لك مشاعرَ ماذا عنك..»

«لا أدري..»

«أنتَ تدري!»

قطعَ حوارنا صوتُ أُمِّي. نهض الواثق؛ ليخرجَ، حسب رأيه رُبَّمَا أُمِّي تريد قول أمرٍ خاص لي أوقفتْه أُمِّي قائلة:

«اجلس يا بُنَي، الأمر يهمك أيضًا»

جلسنا ماذا لدى أُمِّي؛ لتقوله ويجمعنا معًا؟

«هذا البيت اشتراه والدك لي؛ هو بيتك أيضًا، ورضوان أخوك ستذهبُ معه يوم الجمعة لخطوبة طل عليك إقناعه؛ ما دمت أخاه..»

قاطعتُها «أمِّي لا تستغليه مِن أجل نواياك»

قال «إذا كنتَ ترغبُ؛ سأذهب معك.»

تذكرتُ هذه الكلمات التي قلتُها لمنير يوم تردُّدِه فِي الذهاب لمعرض طل. هل هي إشارات مِن القدر أمْ تصرفات جينات السَّدابي. سمعتُ صوت أُمِّي بعطف وحزن

يقول : طل ترغب في الوجود بيننا.

لم أرَ مكتبة طل مِن قبل ممتلئة بالمشترين. قررتُ وضع بعض الإجابات لأسئلتي، رأيتُ غشاء دموعها تلألُؤه أشدّ لمعانًا، أشارت لي بالجلوس، لكن اللوحات التي فِي الجدار تجبرُك أنْ تقفَ أمامها هل تلهو بي طل ؟! كيف لقلب، ويد رسمتْ هذا الألم أنْ تفتحَ

قلبها لرجلٍ جديد، ومَنْ ؟ أوليس بغريب أنْ يكون شقيقه الأصغر ؟ أُمِّي وطل قد جُنَّتَا، وأيضًا أنا الضَّائع فِي متاهات أسئلتي إثر تلألؤ عينا طل بالدموع. تحرَّكتُ ببطءٍ نحو باب الخروج حازمًا أمري بأنَّ الأمر لن يستقيم، لم التفت للوراء أبدًا .يدان تحيطان بوسطي وبكاء في ظهري، يدا طل اللتان أعلمهما، آثارهما التي مازالت فِي جسدي تمنعانني مِن التحرُّك. وقفتُ ككتله ثلج لم أستطع البكاء معها هذه المَرَّة مَن كانوا في المكتبة تركوا ما يريدون، وخرجوا مُطْرِقي الرؤوس سألتُها:

«أنا لا أفهم..؟»

تقولُ مِن بَيْن غصصها:

«فقط أريد أنْ أكونَ بينكم، ولا يمكن لهذا أنْ يحدثَ إلَّا إِنْ تزوجتني، لا أريدُ منك شيئًا، عِشْ حياتك كما تريد.. فقط أريدُ أن أكون بينكم كما كان يحبُّ منير شقيقة لك، وابنة لأمك، لن أطالبك بشيءٍ أبدًا. أسرتي تريد قبول مَن تقدَّم لي، وقد قلتُ لهم إِنَّك تريد الزواج بِي، وأنا أوفق، وافقوا بما أريد، هم ينتظرون قدومك؛ لتأكيد ما أقول مِن أجل شقيقك لا تجعلني لشخصٍ آخر، وغريبة فِي أسرةٍ أخرى، أنتَ تدري مدى حُبِّي لأخيك.»

قاطعتُها: «ماذا عنيتِ بأَنَّ معزتي مِن مَعَزَّة أخي، كيف يكون ذلك؟»

«لأني لم أرَ حياتي مع منير وأنت بدونها، كنتِ حولنا بابتسامتك ومشاغباتك، لم تكتمل ضحكه لنا إلَّا وكنتِ أنتِ مكملها.»

«إذن أنا مُكَمِّل الأشياء دومًا ؟ لك ما تريدين طل.» خرجْتُ أُجَرِّر أقدامي بلا هُوِيَّة، أو كُنه.. مَن أكون أنا؟ بدأت تأسرني أحاسيس رسالتي الأولي، متاهات روحي. لماذا خُلِقتْ، مَن أنا؟ وما دوري في هذه الحياة؟ وماذا أريد لذاتي؟ تركتُ أسئلتي الجديدة في آثار خطواتي المغادرة. تنهدتُ تنهيدةً عميقة، وواسيت نفسي. كنتُ أعيش حياتي فِي حياتِهِ، واليوم ماذا يحدث؟ أنا الحارس الأمين لزوجته؛ لكي لا تكون بين يدي أحدٍ غيره. أيْنَ مشاعري مِن كُلِّ ذلك؟ هل ستصبح طل زوجتي أختي؟ تنهدتُ لن يضيرني الأمر شيئًا، أنا لن أكونَ موجودًا، سأرجعُ للرمَّاش، وبعدها سأُنْقَل لمكان آخر مِن السُّودان بعيدًا عن أمدرمان. استلقيتُ على سريري. سألني الواثق الذي يعلمُ أين كنتُ فقلتُ:

«سأتزوجها..»

«أتحبُّها؟»

قلتُ ساخرًا:

«أيحبُّ أحدٌ مَن تريد أنْ تصبحَ أختًا له، أنا فقط الحارس الأمين لعشق أخي، مِن أجل أنْ لا تُرغَم على الزواج مِن غيره.»

«لن ينجحَ الأمر؛ ستعيش تَعِسًا»

«وهل جرَّبْتُ الفرحَ يومًا.»

أغلقتِ الغُصَّة حلقي، وفمِي..

(٣)

أُمِّي تُجَهِّز لمراسم الزواج كأَنَّها ليستْ فِي عدة المتوفى. طلبتْ مِن أسرة طل أنْ يفعلوا ما يريدون لكنهم اكتفوا بالعقد فِي الجامع. جعلتُ وكيلي الواثق أخي يهزُّ رأسه قائلًا: «أنت تلهو بحياتك..» ذهبنا لأسرة طل، جلستُ بقربِهَا، وعلى رأسينا أغانٍ وتراتيل الجرتق، لم أستطع أنْ أمنعَ نفسي من الابتسام، وذرَّات المحلب المسحون، والصندل تملأ الأجواء. طل تكتسي بالحياء مُطرقَة الرأس، تتحاشى النظر لي. أمِّها أوصتني عليها بأنَّها أمانة فِي عنقي! هل لها أنْ تكون غير ذلك؟ أمانتك وأمانة أخي في داخل قبره، وأنا الحارس الأمين، وعدتُها بذلك. وصلنا منزلنا زغردتْ أُمِّي لمقدمنا وأبي لم يتم على رحيله شهر. تَزَيَّن البيت بزينةٍ جديدة، غرفة زواج منير مضاءة تنبعثُ منها روائح جميلة، لم ترقْ لذاكرة أنفي.. أشتَمُّ رائحة حنوط أخي فِي داخلها، قدماي رفضتا الدخول، قلتُ لأُمِّي ينتقل الواثق هنا، وأنا سأظلُّ فِي غرفتي، لم تعارضني. خرجنا أنا والواثق مِن المنزل ليلةَ زواجي، سهرنا معًا، قصصتُ عليه أوَّل حبٍّ، كرةُ البنغ بنغ وما آل إليه الأمر، سألني ماذا تنوي أنْ تفعل الآن قلتُ:

«سأغادر للرمَّاش، سأقضي رمضان هناك، وربُّما أحضر للعيد، وأنت زوجتك وطفلك في انتظارك.» قال: «مُدَّة تأشيرتي انتهت؛ يجب أن أُقَدِّم لها مِن جديد.»

عُدْنَا فِي منتصف الليل، تلقينا توبيخًا لاذعًا مِن أُمِّي، كان أكثره على رأس الواثق، الذي لم يكن ناصحًا لِي، كيف يجعلني أسهر

خارج البيت يومَ عُرْسِي؟ أُمِّي تعاملُ الواثق كمعاملتها لي فِي حياة منير، راق لِي توبيخه! ابتسمتُ له ممازِحًا، وقلتُ لأُمِّي: «تعرفين لماذا تزوجتُ طل؛ فلا يذهب فكرك لمكان بعيد، فقط أنا الحارسُ الأمين.

وجدتُها مستلقية فِي سرير منير متكوِّرة فِي وسطه لا أدري إِنْ كانت نائمة أمْ لا.. أطفأتُ الإضاءة، وذهبتُ إلى غُرفَة أخي، ضحك الواثق، وقال: «كنت أعلمُ أَنَّك ستأتي؛ بِمَا أَنَّك العريس المتشرِّد، ولن يجدَ النوم سبيلًا لجفنيك. هناك أمر أودُّ إخبارك به اتصلت عليَّ زوجتي، وقالتْ إِنَّ محامي أبي قد أتاهم بوصيته، وأَنَّ ما بداخل الوصية قد جعل أُمِّي طريحة الفراش؛ لأنه سَجَّل جميع ممتلكاته لوالدتك، ممتلكاته الموجودة فِي أستراليا، والسُّودان، حتَّى شقته في مصر. يجب عليها السفر لأستراليا لإكمال الإجراءات..»

سألتُ «مَن التي تسافر؟»

«والدتك.»

«لا شأن لنا بما لديه، ولا نريد شيئًا منه.»

«الأمر يرجع لوالدتك، وليس لك. عليك إخبارها».

«وما شأني أنا؟ أخبرها أنتَ».

«سأخبرها؛ ونسافر معًا لأستراليا..»

لم أجد نفسي إِلَّا وأنا أنهالُ عليه ضربًا، وأقولُ له سأقتلُكَ.. ضحك قائلًا:

«سنذهبُ، ونتركك وحدك مع طل أيُّها الحارسُ الأمين، وعندما نرجعُ نريدُ أنْ نجدَ منير الثَّاني علي ظهر الوجود.»

علا صياحنا، أنا ضاربٌ، وهو ضاحكٌ، وجدنا أمي في رأسنا كأطفال صغار، التزمنا الصمت. قالتْ ماذا تفعل هنا، قال الواثق مُنقذًا لِي:

«هناك أمر أريدُ أنْ أخبركِ به.»

هدأتْ ثورتها، سردَ عليها الواثق ما قاله لي قالت: «حسنا سأسافر معك..» جعلتني في اندهاش. قالَ لها: «سنسافر معًا ليهنأ العرسان بالهدوء والسكينة»

قلتُ: «أصبح لك لسان يا سجمان..»

قلتُ لأُمِّي: «ماذا تقصدين..؟»

«والدك فعل ذلك مِن أجلِ سببٍ ما، وعليَّ معرفته». «تبحثين عن أسباب رجلٍ ذهب دون أنْ يلتفت إليك أو لأبنائك؟ أنتِ ملاك، أَمْ بكِ ما لا نعرفُه؟ هل هو نفس السحر الذي تزعمُ خالتي أَنَّه قد سُحِر به؛ ليتركنا؟ هل فعله لك لتكِنّي له الولاء رغم الذل والشقاء؟ لا شأن لِي بك، لكن لن يدخل جنيه مِن ماله عليَّ،

وأتمنى أنْ تعيدَ أموالُه شبابَكِ الضائع، وخفوت بصرك، وانحناء ظهرك بسبب ماكينة الخياطة يا مدام خلف الله السدابي.»

وخرجتُ فِي منتصف الليل غاضبًا، إلى أين أذهب لا أدري، غرفتي تحتلها طل، وهنا ابن السدابي وأمواله. لم أجد فِي الشَّارع غير كلبين، رفعا رأسهما، ثم وضعاهما دون إبداء أي تعاطفٍ معي. هل أسيرُ أنا عكس التيار أمْ ماذا؟ رجعتُ إلي المنزل حازمًا أمري بالسفر غدًا للرمَّاش، تاركًا أُمِّي ورحلة البحث عن أسباب زوجها المتوفى والشرعِيَّة التي منحتُها لطل للبقاء بالقربِ مِن روائح عشقها المتوفى.. سيفقدانني عقلي، رجعتُ إلى غرفتي، جمعتُ أمتعتي، قال: إلى أين؟

قلتُ غاضبًا «إلى الجحيم»

ضحكَ وقالَ: «هل بإمكاني الذهاب معك؟»

لم أردّ عليه، قال لي دعِ الفجرَ يأتي، ثُمَّ غادر. استلقى علي ظهره أغلق عينيه، أخرج زفرة عميقة. قال لي»هل سمعتَ بشخصٍ توفى، وبعد وفاته ويتمُّ إدخاله لغرفه العمليات، ليس مِن أجل التبرع بأعضائه، بل مِن أجل تصحيح جسده؛ لأنَّه توفى في وضعية الجلوس، وتيبَّس جسده علي تلك الوضعِية؟ لا أحد يعلم زمن وفاته.»

قلت «مَن هذا.. هل هو السدابي؟»

«نعم السدابي مات وحيدًا، لم تُغْلَق عيناه، أو ينطق بشهادة. أعتقدُ أنَّه قد قُبِضتْ روحه، وتَمَّ سؤاله، وهو في كرسيه. لم أره مقهقهًا يومًا، دومًا كانت ابتسامته نصف لا أظنُّ أنَّه نسيكم، لكن لا أدري ما كان يمنعه ما رأيك أنْ نضعَ اللوم على ساحر خالتك ذاك..»

«أينما كان الله يرحمه؛ إذا أراد الله.. هو عالم الغيوب. سأسافر بعد قليل، وسأترك أُمّي وطل في عهدتك. رُبَّما أحضر في العيد.»

«سأبدأ فِي إجراءات أُمِّي مِن الغد.»
«أي أم تقصد؟»

«أقصد أُم رضوان، أخ الواثق السجمان»

امتصَّ امتعاضي من كلامه.. فقلتُ: «فلتكن أُمّك يالسدابي أنا فقط أمتلك اسمي»

قلتُ ضاحكًا: «وإذا أنجبتْ زوجتي ولدًا سأسمِيّه رضوان؛ لأنتزع آخر ما تملك.»

هممتُ بضربِهِ، عانقني قائلًا «أنت سند الكُل يا أخي رضوان، ومَن جمعتنا، وجعلتني أرى وطني، أنت غالي علينا يا مَن قريبًا لن تمتلكَ حتَّى اسمك». نمنا ما تبقى مِن الليل.

نمتُ ولا أحمل للكونِ أيّ ضغينة. الواثق يجيد التعامل معي

يخفف عني كُلّ أحزاني بمرحٍ وقفشة. آنس وحدتي لم أعد أتذكَّر منير كما في السابق، حتَّى روائح عطر الواثق حَلَّت محل روائحه. يا لغباء طل! حملتُ حقيبتي لإخبار أُمِّي بسفري، أسمعتني ما أسمعتني فِي كيفية سفري، وبالأمس كان زواجي، وختمت حديثها بأنْ اخشي الله في بنت الناس. أُمِّي أنت تعلمين لماذا تزوجتني طل، لن يؤثر حديثك، طل فقط لديها عندي مصاريف معيشتها، ولا شيء آخر. طرقتُ باب غرفة طل، وجدتها تلتحف بغطاء أخي ، قلتُ لنفسي كيف شاركتُ فِي هذا ستفقدُ هذه الطل عقلها.. أخبرتها بأَنِّي مسافرٌ الآن. وضعتُ النقود في الطاولة، انفجرتْ باكية، تردد لا تتركني وحدي، قد لا ترجع مثل منير ، عانقتني بين يديّ كقطعة مِن الحرير. لماذا تغيَّرت طريقه عناقها لم يكن عنيفًا كما سبق أحسستُ برأسها يغوص داخلي، تردد لا تتركني وحدي.. أعلم أَنِّي الحارس الأمين لكن لم أتخَيَّل أنَّها تريدني لصيقًا بها، جنون أو أنانِيّة منها؛ كيف أحبَّ أخي هذه المخلوقة المضطربة. أبعدتُها عَنِّي، قلتُ «أُمِّي والواثق بجانبك، بالإضافة لملابس أخي، غطاءه، ورائحته؛ لن تكوني لوحدك..»

قالت: «رضوان لا تتركني وحدي..»

يداها تحلُّ أزار ملابسِها، وقفتْ أمامي كسعلاة الجن الحسناء. انتزعتُ غطاء أخي لأغطيها، أزاحته عنها مردِّدة «لا تتركني وحدي..»

«ماذا تريدين مني طل؟ أردتي شرعِيّة وجودك هنا؛ فكان لك ذلك. ماذا تريدين؟»

« أريدُ ابن.»

صفعتُها «مَن أنا دُمْية فِي يديك، أردتِني زوجًا على ورق، والآن تريدين أن أمنحك طفلًا لتسميه باسمه ، أنتِ مثل أُمِّي لا يهمُّكِ أمري».

هززتها بعنفٍ، وهي تبكي مكررة «اضربني رضوان لكن لا تتركني وحدي».

تعلَّقَتْ بعنقي، وجسدها يحيط بي دموعها تتساقط على ملابسي، جلستْ تكوَّرتْ فِي حضني كطفلة التسعة سنوات، لون القهوة وملمس الزبد، ترتفع تنهيدتها لتهبط مكررة لا تتركني وحدي. أغلقتُ فمها بإبهامي، مسحتُ دمعةً مِن خَدِّها، هدأت؛ ستنامُ وأغادر فِي هدوءٍ.. تيقنت مِن انتظام تنفسها ببطءٍ وضعتها بهدوء على فراشها كاتمًا أنفاسي. وجدت يدها قابضه علي جزءٍ مِن قميصي، وضعت يدي علي يدها، أحسستُ أنهَّا تخفف مِن قبضتِها، أزحت خنصرها، كان صغيرًا، أنامل يدها رقيقه ومستقيمة تشعر بخفتها كأنَّها ترسم الآن علي قميصي لوحةَ أريد ابن منك .. هل هي بكامل وعيها، أم تحتاجُ لطبيبٍ نفسي؟ أطلقتُ سراح قميصي من يدها؛ لأضع غطاء أخي على أجمل قطعة أبنوس بكر على سطح الأرض، وغادرتُ الغرفة.

طل بحاجة لطبيب نفسي؛ سأتصل بأحدهم لتحديد موعد، يجب إقناعها بالذهاب. إذا لم تذهب؛ ستفقد عقلها لا تعي ما تقول، وتصرفاتها غير متزنة. والدته جزعى، ماذا فعلت ..لم يدعها تكمل

بغضب قال خطأ فادح يوم وافقتك، وسايرتها.

يجب عليكم إقناعها أيّ تأخير سيضرُّ بها

«أُمِّي إيَّاك أن تأتي.. خالتك وتذهبان بها لشيخ أو دجَّال أعلم كيف يمكنها أنْ توسوس لك.. الواثق اعتني بهما هما أمانة فِي عنقِكَ. يجب أنْ أداوم في العمل مساءً لولا ذلك؛ لانتظرتُ وقمتُ على الأمر».

تلا رضوان الوصايا علينا، ثُمَّ عانق والدته، لوَّح لي مودِّعًا، وفي فمه ابتسامة تقول انتبه يا السجمان. قالتْ والدته أنت رجل البيت الآن يا ابن خلف الله السدابي.. إنَّها المرة الأولي التي تخاطبني فيها بشكلٍ واضح. قلتُ لها:

«سنبدأ إجراءات السفر غدًا»

ثُمَّ طلبتُ منها طلب بترددٍ، قلتُ:

«أريد الذهاب للإفطار فِي ميدان الاعتصام، لا أدري ماذا أحمل معي»

قالتْ بحزنٍ باهت:

«أنت ابنه بحق . قبل خروجك بساعة ستجد الإفطار مُعَدًّا

(٤)

أفقتُ مِن النوم أجفاني ثقيلة جِدًّا، لا أقوى علي فتحها. غيَّرتُ اتجاه استلقائي إلى ظهري متثاقلة الغطاء يشمل كُلّ جسدي، وضعت يدي على صدري، التصقت يدي بملمس جسدي أجفاني المثقلة فُتِحَت مسرعة.. أنظرُ لجسدي لا ارتدي شيءٌ غير غطاء منير ، ملابسي على الأرض، في غمرة فزعي ودهشتي ذاكرتي عرضت عليَّ ما حدثَ صباحًا. ارتعدتْ فرائصي؛ ماذا فعلتِ يا طل وآخر المشاهد بكائي الأخير في صدر رضوان وعباراتي ترددها أذناي. جسدي كما هو الغطاء مُحْكَم عليَّ.. انسجمت الدموع مِن عينيَّ. رأسي امتلأ بضجيج التساؤلات..

ماذا تريدين من رضوان؟

هل حقًّا تريدينه أخ؛ لتظلي بجانب روح، وروائح أخيه؟

تحبين دفء، عطف، وهدوء منير، وضحكات رضوان؟

كيف ستنظرين لعين رضوان بعد الآن، غادركِ دون أن يمسَّ جزءً منك. هل غاضب منك الآن. طلبتِ شرعِيّة الوجود وسطهم، والآن تطالبينه بابن! هل وافق علي طلبك الأوَّل مِن أجل عطفه عليك فقط؟ هل يقبل أحدٌ أنْ يُعامَل كجسدٍ بلا روح، أو مشاعر؟ كما قال دمية بَيْنَ يديه. لماذا ضربني هل يكرهني؟ أم لأنَّه يَكِنُّ لي مشاعر يريد أنْ أحترمها؟ هل أتمنى أنْ يكن لِي بعض المشاعر؟

هل مِن الممكن أنْ يحدثَ ذلك؟ وإِنْ حدثَ هل ستنسين أخية؟ لم أرهما منفصلين منذ أنْ التقيتهُمَا معًا! لقائي بمنير أوَّل مَرَّة سارع نبض قلبي وروحي وعندما رأيتُهُمَا معًا كانا مزيج بين (افروديت) و (بس) إلهي الحبّ والمرح. طل هل تحبين الأخوين معًا؟ هل يمكن ذلك؟ ابنة عم أبي تزوجها زوج أختها التي توفت أثناء الإنجاب، رفضها وبكائها لم يشفعان لها عندما قال لها جدي زواجك منه ليس لمقاصد الزواج الحقيقيّ بل مِن أجل مقاصد إنسانِيَّة، وشرعية البقاء فِي منزلها، ورعاية أبناءها، تعلمي أنَّ أباهم رفض أنْ ينضموا لنا. أيْنَ مشاعرها حزنها على أختها؟ مشاعرها المستقلة كروحٍ وحسٍّ؟ تزوجته وأنجبتْ بعد تسعة أشهر، عتقتْ ابن أختها مِن اللبن الصِّناعي، نال قليلًا مِن رضاعة طبيعية. حزن، ورفض، زواج، وإنجاب! متغيرات المشاعر هل تتحوَّل المشاعر الإنسانِيّة إلى عاطفِيّة؟ أين تختبئ المشاعر الدائمة، في وقتٍ قد تسيطر عليك فوضي المشاعر الوقتِيّة؟ ماذا فعلت برضوان يا طل؟! جعلتِهِ رهين المقاصد الإنسانيِة، وفوضي مشاعرك اللحظِيّة، غير مكترثة لمشاعره، وما يريد.

- آلو..

- السلام عليكم رضوان.

- مرحب طل..

- أعتذرُ عَمَّا حدث بالأمس.

- ....

- سأغادر لمنزل أُمِّي اليوم.

- ....

- أعفيك مِمَّا طلبت منك؛ شاكرة جِدًّا تصرفك النبيل مِن أجلي.

- ....

- يسعدُني أنْ أراك حرًّا مِن قيدك الإنسانِيّ نحوي..

- السلام عليكم!

تكوَّرتُ، شددتُ غطاء منير عليَّ، ونمتُ كما لم أنم مِن قبل.

شوائب مضيئة

تنظيف ما بين حبَّات الحمص لإفطار الثوار، وصوت الواثق الحائر بماذا يذهب؟ صوت أبيه الذي أعرفه، الصوت الذي سألني وأنا فِي عمر الثامنة عشر، لا يعلم أبنائي أنَّني تجاوزت الخامس والأربعين بقليل؛ يظنون أنَّني أكبر من خالتهم. أختي التي تفوقني بستة سنوات، أسعدها تصغير عمرها الذي لا يتناسب مع شكلها، وملامح وجهي وتجاعيدي التي لا تتناسب مع عمري الحقيقي. هل والدك موجود أجبتُ بنعم أبي مِن أقدم الساكنين في قريتنا يعملون دراسات لبناء سد في منطقتنا. أبي عايش جميع الفيضانات والسيول التي مرَّت على المنطقة اتجاهاتها المحددة، ومساراتها المتغيرة، حتَّى الوديان التي نادرًا ما تتأتي بها السيول أخبرهم بها. لم يتركوا شيئًا للصدفة، يأتي لأبي كل مساءٍ، يتحدثون عن الأرض، ومتغيرات الطبيعة شواهد أبي كثيرة يدوِّن بعضها، ويستمع بإنصات في بعض الأحيان. كنّا كأسرة له، أُمِّي، إخوتي، وأهل الحي.. تَمَّ تسكينهم فِي كرفانات بأقرب مكان مِن تشييد السد. أكملتُ شهادة الأساس، المدرسة الثانوية بعيدة مِن منطقتنا مَنَعَنِي

أبي مِن الذهاب، سمعتُه يُحادثُ أبي في كيفيه بناء مدرسه ثانوِيّة، اجتمع أبي بأهل القرية، كنتُ الأسعد منهن، أصبحتُ مكلفة بجمع التبرعات مِن النساءِ في يوم تبرعت بعض النسوة بخواتم ذهبية، أكتبُ اسم كل مَن تتبرع، وأضع النقود فِي منتصف الدفتر. أتيتُ وجدتُه برفقة أبي تطابقت النقود والأسماء المكتوبة، سألني أبي قال مكتوب خاتمين مِن البابا‌ي، ونور الشام أين هما مددتُ يدي اليسرى، وضعتهم على أصابعي؛ لكي لا يسقطا مِنّي، أخرجتُ الخاتم الأوَّل، ورفض الخاتم الثاني الخروج. قلتُ لهم سأخرجه بالصابون والماء، نهضتُ لأفعل، أقسم خلف الله السدابيّ ألَّا أفعل، يُتْرَك فِي يدي، وسيدفع ثمنه قال له أبي «خاتم نور الشام يُباع للمدرسة الثانوية لا تخلط الأشياء يالسدابي» ذهبتُ وأتيتهم بالخاتم فِي يدي أبي أشار عليَّ أنْ أضع الأشياء فيما بعد في حقيبة صغيرة، نظر لي السدابي، ثُمَّ أطرق على الأرض طالبًا مني أنْ أدعهم لوحدهم، نظرتُ لأبي، وجدتُ ملامح الاستغراب علي وجهه. وبعدها بقليل خرج من منزلنا سمعتُ أبي وأمي يتحدثان، صوت أُمِّي يرتفعُ وينخفضُ. سمعتُ اسمي في حوارهم الحاد؛ خرجتُ، أشار لي أبي بالقدوم نحوهم قال: «السدابي يطلبك للزواج..» لا أدري لِمَ ابتسمتُ، اندهشَ أبي، وفزعتْ أمي: «هل أخبرك قبلنا»

قلتُ: «لا..»

«لماذا تضحكين؟»

«لا أدري.!»

قالت: «متزوج وعنده أبناء يا السجمانة يا الرمدانة»

تركتُهم وذهبتُ بالفعل، كنتُ لا أعلم فقط أحسستُ بفرحٍ داخلي، وافق أبي شرطه الوحيد أنْ أظل في القرية، رُبَّمَا يستمرُّ بناء السد أربعة أعوام، ماذا بعد ذلك؟ قال أبي لكل وقت حديث. كان يسافر لبيته الأوّل كُلّ شهر، لم يُحَدِّثني غير أنَّ له ابنين كمال والفاتح، لم يذكر زوجته أبدًا بسوءٍ، أو خير لم أكن زوجته، كنتُ طفلته المدللة. ثاني يوم بعد إخبار أبي له بالموافقة أحضر لي خاتمين مثل خاتم نور الشام، سعدت بهما، أوشكتُ أن أعانقه أمام أبي؛ لولا الحياء. استأجر بيتًا صغيرًا داخل الحي، كان بين المدرسة والسد لا يهدأ أبدًا، يخبرني بما عليَّ فعله مِن حسبه لمواد الأبناء، أو الإشراف العام. أصبحتُ أتحدَّث مثله، وأقلِّدُه في طريقة حديثه، يضحك كطفلٍ صغير. لم أنمْ يومًا بجانبه، يضع رأسي في صدرهِ، ويغلقُ عليَّ بيده، ويتنهد تنهيدة غريبة، سألتُه: «دومًا ورأسي في صدرك تخرج زفير عالي لماذا؟»

قال: «لأسمح لصدري باستنشاقك..»

كان كاذِبًا، علمتُ فيما بعد أنَّها تنهيدة الخوف مِن مغادرتي. أمي أراح قلبها سعادتي التي لا تخفي على أحد.. الظاهرة فِي ملامحي، والحركة. طفلي فِي بطني، أستمعُ لنساءِ الحي وهن يتناولن مشاكلهن مع أزواجهن، وخصوماتهن، كنتُ أتعجَّب..! جدالنا عندما يجدّل شعري ضفيرتين، إن جعلتها واحدة؛ يجلسني ليجعلهم اثنتين، فأغيّرها لواحدة،فيعدها إلى اثنتين كطفلة يوم العيد. لم يشهد منزلنا مشكلة أو نقاش، حديثه هادئ ومرتب جِدًّا، وكنتُ سريعة

التعلُّم، لم أدفعه لأن يقول أمر مرتين. لا يأكل إلّا وأنا بجانبه، أقول له اجلس أمامك يشيرُ لمكان جلوسي بجانبه بحبٍّ، آكل متكئة علي كتفه، وكثيرًا ما يضعها في فمِي. أجمل أيَّام عمري! بعد انتهاء بناء السد أصبح يأتيني كل شهرٍ لمده ثلاثة أيَّام. تنهيدته ارتفع زفيرها، كنتُ أعلم أنَّ رأسي فِي صدره يطفئُ نارًا ما. وصيتي من أمي لا تسأليه عن بيته الأوَّل، لا شأن لك، وإن قال لك لا تعلقي فِي الأمر أجيدي الاستماع يا ابنتي. ندمتُ فيما بعد على عدم سؤالي، رُبَّما أخرج لي ما في صدره؛ لأضيفه لثوب الأعذار التي نسجتها له منذ مغادرته لنا حتَّى وهو فِي قبره. لو رأوا عطف عينيه لمَا لامني أحدٌ، دفء صدره، قهقهاته الثلاثة، إصراره علي الذهاب للمدرسة بعد اكتمالها.. وصلنا للخرطوم اقبض علي يد منير ذي الثلاثة سنوات، وحبلى برضوان. اشترى لي المنزل بالقرب مِن أسرة خالتي العافية، أثث لي المنزل، أسعدني منزلي جِدًّا، فرحي يزداد، وتنهيدته تعلو أكثر، وعناقه لِي ولابنه يزداد حرارة وشوقًا، شوقه دائمٌ لنا، ونحن بين يديه بعد إنجاب رضوان أخرج لهم أوراقهم الثبوتية، وجوازات سفر لنا الثلاث. أخبرني أنَّه مسافر لعمل فِي أستراليا، وسيرسلُ لنا بعد استقراره. وضع في يدي كيس وسادة ممتلئ بالنقود، كثيرة جِدًّا، قال لأطمئن عليكم إنْ طال الأمر لعامٍ. لا ينقص مصروفكم .قلت له أذن سأستقر في بيتي هنا في أمدرمان، وخالتي وأبنائها معي، راق له ما قلت، تكونون قريبين عند إجراءات سفركم. غدًا سأبدأ إجراءات السفر التي أرداها لي بعد ثلاثين، عام وتسعة أشهر، وأربعة أيَّام. غيابه لم يشعرني بالغضب يومًا منه، فمَن أعلم قلبه لا ينساني، وينسى أبناءه. خلعتُ الخاتمين مِن يدي بعد سبع سنوات من أجل مصاريف الدراسة لمنير . كنتُ أنتظرُ

أن يأتي يومًا ما؛ ليخبرني بسبب غيابه، أسمعها مِن فمه؛ لأبتسم وأقول له تكفيني رؤيتك الآن، كنتُ في انتظاره، ولم أتوقع أنّي لن أراه مرَّة ثانية، رُبَّما تركَ لِي الأسباب مع محاميه في أستراليا.. سجَّل جميع أمواله باسمي، قالها لي في إحدى المرات، وأنا على صدره، أنت تستحقين كل الأشياء الجميلة في العالم، عيناك تُنبتُ الأرواح الميتة، سألتُه أيّ أرواحٍ؟ وضع شفتاه علي شفتي فألجمَ سؤالي، وكلماتي.. تحسستُ فمي، آثارها وطعمها عليه حتى الآن.. صنع لي طريق الحبِّ، فأشرعتُ له مسارب الأعذار

رنَ هاتفي: «أهلًا رضوان»

«أمي لا تتركي طل تغادر المنزل، لا تتحدثوا معها في أمر الطبيب النفسي».

«طل لم تخرج من غرفتها».

«ماذا بها يا رضوان؟»

«لا تدعيها تغادر..»

«حسنًا هو أمر سهل يا ابني، لكن ماذا حدث؟»

«أُمِّي سأخبرك؛ إن لم تجعليها تغادر، أنتظر اتصالك»

«يا بُني طل، طلّ مآقينا التي كحلها الحزن والألم».

طرقتُ بابَ غرفتها أتاني صوتها بعد فترة طويلة، قالت سألحق بك، تعتذرُ عن تأخرها فِي النوم، قلتُ لها: «الواثق يريد الذهاب لإفطار مَيْدان الاعتصام، أنا ذاهبة معه، هل بإمكان العروس الذهاب معنا» أجابت بفرحٍ بقبولها. ماذا ستقول والدتك إنْ علمت بذلك، قالت «هل تنوي إخبارها أنت..» وضحكنا. ساعدتني في التجهيزات بمرحٍ ونشاط، وأصبح برنامجنا اليومي الواثق يساعد طل فِي المكتبة، يعودان عصرًا نذهب جميعًا لميدان الاعتصام. اختفت مِن على وجوههم أحزان فقد الأب والعشق، وليصبح العشق والحبِّ، والوفاء للنيل والنخيل الرمال والوطن ..

فوضى أقداركم

أُطفئِتْ أضواء النفق، العرقُ يبللني، يد تقبض بعنفٍ على عنقي، أفقتُ مذعورًا، سودان كان مختبئ خلف الأشجار،، صوته توصله الريح إلى أذنيّ. الصيادون قادمون مِن السَّماء، من الأرض، ومِن جميع الاتجاهات.. أجسادهم خواء بلا قلوب، يرتدون ملابس الترهيب والخوف. ساشا على رأسي.. ما بك المعز؟ وكأسُ ماءٍ بيدها، تناولتُه دفعةً واحدة. قلتُ؛ فليكن خيرًا، حلمٌ غريب، بكت فاتو أسرعت ساشا إليها. سقفُ الغرفة رأيتُ فيه كُلّ تفاصيل حلمي هل هو نفق الثوار؟ ما يقصده سودان؟.لماذا مُطفَأ، وكان فِي جدارية العاج في جسد سودان مُضَاء

«بيتر سأسافر إلى السُّودان».

«لدينا التزاماتٌ كثيرة مع المصدرين يا مُعز لا يمكن الآن، يمكنك أنْ تسافر بعد عشرة أيَّام، قبل العيد بأيَّام.»

«إن شاء الله يا بيتر.»

عملنا بجدٍّ، كُلُّ يومٍ يأتيني سودان فِي المنام، أراه مختبئ بَيْنَ الأشجار، هاتفًا لِي «الصيادون قادمون» في إحدى الليالي كان صوته عاليًا، اقتربَ الصيادون، سيضعون الأغلال على الأعناق، والأقدام، السياط على الظهور، اقتربَ الصيَّادون.

أم مجدي طلبت مجموعة مِن أسنان التماسيح لإحدى البازارات، يصنعن منها حُلى، وتُعَلَّق للزينة، نسيتُ أمرها، تركتُ رسالةً لبيتر كرستوفر

«عزيزي بيتر لا يمكنني الانتظار أكثر، لم أحمل معي أسنان التماسيح، ستجدُها في مكانها في المزرعة إذا لم أرجع، وانقطعت أخباري؛ اتصل بهذا الهاتف»
وكتبتُ له رقم هاتف الهادي والشفيع خالي.

وصلتُ الخرطوم مِن المطار لميدان الاعتصام، حلَّلتُ الصيام، أحسستُ براحةٍ لم أحسها مِن قبل تَنَهَّدت سائلًا نفسي، ماذا تريد أنْ تقول لي يا سودان؟ صوتٌ يمازحني بأن أدعه يجلس بجانبي، معه رُبَّما زوجته ووالدته، تحادثنا كأنَّنَا نعرفُ بعضنا مِن زمان طويل. الواثق، وطل، وأنا المعز، قال لِي لفتَ انتباهي جسدك الرياضي، ضحكتُ، وقلت له: أعمل في مزرعة تماسيح. جذب انتباههما ما قلتُ، عيونهما تطلبان مِني مواصلة الحديث، فكانت أحاديثنا، ومكان لقائنا كُلّ يومٍ يرجعون لمنزلهم، ليأتوا غدًا بإفطار الصائمين. لم أغادر ساحة الثوار أبدًا؛ أخشي أنْ أذهبَ ولا أعلم ما يخيف وحيد القرن سودان في قبره. خالي الشفيع علم مِن أمي وساشا بقدومي، نلتقي يومِيًّا فِي ميدان الثوار مجدي، الهادي، الواثق، طل، وخالي الشفيع. أمتع الأحاديث والأماني، وخوفي

الخفي من أحلامي المتكررة. فِي ذاك اليوم كُنَّا أنا والواثق، قلتُ له سجِّل رقم الهادي معك إذا حدثَ شيءٌ اتصل عليه، ضحك قائلًا لن يحدث لك شئ يا قاهر التماسيح.! رويت له قصة نادي الملاكمة، وحياتي في أستراليا وسبب عودتي للسودان عندما قلتُ له رضوان أخي اعتدل في جلسته قائلًا رضوان وطل؟

نعم.

«طل زوجة رضوان ؟ رضوان لديه أخ متوفى ؟!»

«نعم هل تعرفهم؟»

«رُبَّما أنا من صنعت الفوضى لأقدارهم! هل هم سعداء؟»

«رُبَّمَا سيصبحون سعداء.»

حديقة الحيوان والرصاص

لِمَ أراهم وحدي يا سودان ماذا فعلت بي روحك في نِزاعها الأخير ،أسكنت داخلي أم جعلتها تحيط بي؟ على جسدك المسجى شاهدتُ قديم الأزمنة، ومؤلم الأحداث.. الآن أرى علي سطح زجاج الفندق الفخيم جداريةً أخرى، حيوانات أرواحهم تحلق تحيط بالأرض التي كانت لهم .حياتهم،لحظاتها، دقائقها.. الآن أمامي بمقدار علو الزجاج والارتفاع؛ الفَيَلة فِي الجانب الأيمن مِن الحديقة عند البرْكةِ الماء تلاعب صغارها بالماء، وعاج يكسو وجهها بالوقار. الأسود، الفهود، الجاموس، الأفيال بأنيابها الكبيرة،وحيد القرن سودان والطائر السكرتير يختالُ مُشْرِعًا جناحيه مكامن الشموخ والافتخار، روحه حزينة ترفرفُ قائلة: ماذا أصاب العزة والشموخ ؟ صورهم ثلاثية الأبعاد على الزجاج فرحه بهدايا الأطفال، تلك الطفلة تطعم القرود، وتتهذب أمام النمور، والفهود.

الزرافة الحسناء أطالت رأسها دنت نحوي؛ همست فِي أذني أيْنَ

نحنُ، أعادت السؤال مِن جديد، أين نحن يا المعز؟ كيف عرفتَ اسمي هل هو سودان أم أسلاف الريح الموثقة للتاريخ والزمان.

سمعتُ أنَّه تَمَّ بيعكم، أو إهداءكم، والبعض منكم شُتِّت فِي حدائق الحيوان داخل البلاد، لا أدري يا زرافة النيل والخليل.. سألتني، وماذا عن الجميزة الظليلة التي كانت في هذا المكان، كانت تقص علينا قصص المساء، عروقها تعانق النيل في الخفاء، تخبرنا بأوقات هجرة الطيور؛ فنستعد لسماع حكايات مسيره المسافات. كنا داخل أقفاص لكننا نعلم ما يدور في مواطننا الطبيعية كيف اختفت سلالاتنا؟؟، وظلت الغابات والأشجار بلا رفيق يستظلُّ بظلها، يأكل من ثمارها. قطع حديث الزرافة الحزين طفلة تقف عندها، تمد لها بفرعٍ من الفروع، تناولته منها بابتسامةٍ، تقول: سنظل في عيونكم وإنْ باعنا الصيادون.

شاهدتُ في وسط الزجاج حلمي الذي يراودني دائمًا في الأيَّام الأخيرة، ويتوسطه سودان يختبئ بَيْنَ الأشجار، يردد الصيادون قادمون مِن كُلِّ النواحي، قادمون غدرهم يتدثر بالعناق والابتسام، يعانقونكم ويضعون الأغلال، يعانقونك ويضعون عراقيل الهلاك.. الصيادون، صاحت أرواح الأفيال والطيور؛ مؤلمة أصوت الروح الفزعة، أصوات لم تألفها آذاننا، كترنيمة حزن في قُدَّاس.. لا أدري إِنْ كانت أصوات إنذار، أو ابتهالٍ ودعاء..

حلَّقت الأرواح فوق سطح النيل، ارتفعتْ موجه لتعانقهم بحنان الرفيق ،الذي ظل بجانبهم شهد يوم بيعهم واقتلاعهم، والأرض أصبحت لغيرهم، وكيف تَمَّ اقتلاع جذور الجميزة التي كانت تؤانس ضفته. ضمّهم النيل لحضنه العميق، ومضى .

إِنَّه الفجر أصوات الرصاص مِن كُلِّ جانب، أسراب طيور الجنة تتساقط مِن السماء، اختلفت الطرق، تغيَّرتِ الوجوه، انطفأت أنوارُ النفق، السِّياط تتدلى مِن الأفق الصيادون بلا وجوه، أجسادهم تمرُّ مِن خلالها أرواح البشر، يبتسمون ويقهقهون، أُغلِقَتِ الطرقُ والجسور، لم يضعوا الأوشام فِي الظهور، لكن الأغلال في الأقدام، والسياط تلفح الظهور.. الواثق لا أجده بَيْنَ الرماد والبارود، ألتفتُ يمنى ويسرى، ولا أثر، اختفى الفرح، واحتَلَّتِ الدموع العيون. ضجَّتِ الرياحُ، حمَلتْ روحي، تساندها قطراتُ المطر، تخبئنا في غيمة الإصغاء، والإنصات التي كانت الشاهد المفجوع، مفطورة الفؤاد، زائغة البصر. وضمتني الريح إليها بألم.

أفراح تتوسط الأتراح

بحثْتُ عن المعز فِي جميع نواحي بقايا الاعتصام؛ لم أجده، كان بالقرب مني، فقدتُ هاتفي.. الفوضى والخراب يعم المكان، نُطارَد بعربات الدفع الرباعي، والدبَّابات حتى شارع الأربعين. المتاريس تغلقُ مداخل الأحياء، الدبَّابَات ولجت لداخل الأحياء، يتَّبِع أهل الأحياء سياسة إطفاء الأضواء، يسقطُ البمبان والرصاص على الرؤوس، اجتازت إحدى الدبَّابات ترس الشَّارع الأمامي؛ لتلحق بمجموعةٍ مِن الثوار أمامنا، لتسقط في نفق تصريف ماء بالعباسية غرب، تحطَّم أنبوب الماء الموصل للمنازل. تجمُّع الثوار، كنتُ بينهم لرفع دبَّابة مِن المكان الذي سقطتْ فيه، التفت إليَّ أحدهم، ثُمَّ قال النظيف السجمان؛ ضحكنا. رغم الألم تذكرنا لقائنا الأول لنخرجها معًا، وليقودها مَن بداخلها بخجلٍ خارج المتاريس، هل تصدقون كانت هناك إحتفالية زواج تقام؟؟ فِي دياري تحت وابل الرصاص تُقَام الأفراح. الخوف لا يسكنُ هذه الديار أبدًا! وصلتُ للمنزل، وجدتُ الجميع يقف في الباب في انتظاري امتلأت العيون

بالدموع. عانقتني طل باكية، أم رضوان تحمدُ الله على سلامتي.. رضوان يكرر الاتصال، أخبرته أُمِّي أنني وصلت بخير. قال لي حمدًا لله على السلامة يا سجمان! قلقنا عليك. قاطعته: «لم أجد المعز؟ مَن المعز؟ أظنك تعرفه كان معي طوال الفترة الأخيرة، سألني عنك، وطل. قال هو فوضى أقدراكما» رد رضوان «لست أعرفه"

«ترك لي رقم هاتف صديقه»

أعطيتُه الرقم قال لي «هذا الرقم أعرفه، اتصلت عليه، حييته أعطانا المعز هذا الرقم لم نجده بعد فض الاعتصام، وهاتفه مغلق، نحن نبحث عنه. سيأتي أخي الذي كان برفقته معك. يُسمَّى الواثق..»

سألتُه: «هاتفك رايتُه مِن قبل، لكن لا أذكر أين؟ مَن أنت؟»

قال: «الهادي الحاج الخضر.»

إِنَّه صاحب الرد الذي كتب خلف خطابي لطل، الذي أرجعه لي. قلت له:أنا دكتور رضوان، الرمَّاش.

قال لي: «المعز هو مَن سمع حديث والدتك وطل.»

انقبض صدري تذكرتُ ما قاله لأخي من أنّه فوضى أقداري التي أحب! قلتُ له إذا وجدتُ زميلًا يحلُّ محلي سآتي غدًا..

أحسستُ بقلقٍ جامح على المعز، ودَيْن كبير فِي عنقي، محقق أمنيتي بأنْ لا تقرأ طل خطابي. أين أنت يا المعز؟ لأشكرك، لتصرفك الذي حفظ متاهاتي. الهادي، الشفيع، مجدي، الواثق،

رضوان، وطل البحث عن المعز في المستشفيات، المشارح، أي خبر عن جثمان وُجِد فِي مكان كُنَّا فِي ذات المكان، ثلاثة أيَّام والبحث متواصل عن المعز، ولا أثر .صوره في جميع الوسائط الاجتماعِيّة، قائمة مفقودي الاعتصام تزيد يومًا بعد يوم، تَمَّ الإعلان عن وجود غرقَى وأرجلهم مُكَبَّلة بالأغلال، بها أثقال علي ضفاف النيل منظرهم يدمي القلوب والمعز ليس بينهم. بيتر يتصلُ كُلّ لحظة والأخرى مخنوقَ الصوتِ، ولا يجد ما يحبّ أنْ يسمعه مِن أخبار. مضي شهرين دون أثر.

أَسْفَارُ الخِتَامِ

(١)

«لا أدري كيف بإمكاني السفر لكانبيرا، ولا أثر للمعز، صورته لا تفارق عيني، كلماته التي كان تخبرنا بأنَّه مغادر،حديثه المتواصل عن وحيد القرن سودان، وذاكرة الأشياء، تعجَّبتُ عندما قال لنا إنَّ للريح ذاكرة، ونَصْل بنقاء الماس، وقوته . تُنقش به على الجبال، وجذوع الأشجار، على الأفق شواهد المكان والزمان، مرعب الأحداث، وتفتح الأزهار، لا تغفل صغيرةً، ولا كبيرة، وذاكرة تجاعيد الجسد، هل تعلم أنّ أي خطٍ، أو تجعيده تحكي قِصّة ورواية ما، وتحت التجاعيد يختبئ الخالد مِن الأخلاق، وأصل إنسانِيّة الإنسان، ومراحل الإبهار التي أَدَّت إلى الضياع. كيف ضاعت قيم وموروثات وُلِدَ عليها الإنسان.الحق للجميع، الفرح للجميع، الحزن للجميع، الحب للجميع، الزرع والضرع ملك للجميع، والحب يجمعنا معًا.

في ذاك اليوم أحسسنا أنَّه ليس معنا، كُنَّا أنا ومجدي والهادي، أوقفنا فجأة ذات مرة أمام فندق كورنسيا الشاهق العلو، المغطى بالزجاج؛

سأله الهادي: ماذا هناك؟

قال: أَلا ترى؟

قلنا: لا..

ابتسم، ولم يكمل، نحسُّ به فِي عالم آخر يرجع منه عندما نسأله عن فاتو وناجين وتسميتهم الغربية. قال هما على أسماء حفيدة وابنة وحيد القرن الأبيض الأخير، الملقب بوحيد القرن سودان، قال له مجدي سمعتُ أنَّ حفيدة قصيرة جدا ستصبح لديك ابنه قزمة أنجب العملاق عُقْلَة أصبع. ضحك وقال سأزوجها ابنك بحدِّ فكِّ التمساح، أضحكنا التشبيه، حَدّ السيف، وفكّ التمساح كلاهما قاتلان، ثقافة العمل. أصبحتْ مرعبًا يا رجل! جلساتنا معًا في ميدان الاعتصام مساءً كانت كرنفالات للماضي وأمل الغد، أروحهم فِي المكان ...أرواحُ مَن كانوا يسكنون المكان.. ألا تتذكرونهم؟؟ قال مجدي هنا كانت حديقة الحيوان، نرى الآن فندقًا أصبح رمزًا مِن رموزِ البلاد. جمالٌ يُشار له بالبنان. قال مرة أخرى انظروا للزجاج، التفتنا إليه.. ماذا هناك ابتسم قائلًا لا شيء، فندقٌ فخيم أزرق الأضواء!.

(٢)

أحب أن أقول لها أمي قالت لي: أحبُّ كلمة خالتي الندى من فمك يا طل. خالتي الندى والواثق اكتملت إجراءات سفرهما، سيغادران بعد يومين، أحزم أمتعتي وحقائبي للرجوع لبيت أُمِّي. رضوان سيحضر اليوم لوداع أُمِّه وأخيه. لم نلتقِ بعد ذلك اليوم، يتصل كثيرًا للسؤال عن المعز، وتدابير السفر، أخبرتُه أنِّي سأغادر اليوم. طلب مِنّي انتظاره ليذهبُ معي لأسرتي. أمُّ رضوان أعدَّت له كُلَّ ما يحب. الواثق مازحًا مُعَلِّقًا «الإبداع يظهر مع قدوم رضوان» .الواثق بيننا كأنَّه رضوان ومنير، خالتي تعامله مثلهما. أصبح يعرف كل صغيره وكبيره في أمدرمان. لسانه فارق اللغة العربية الفصحى التي كانت تضحكنا، نشبِّهُه بأنَّه يتحدَّث بلغة أطفال مسلسلات اسبيستون. علمتُ مِنه لقبي (طل المآقي) التي تسعد القلب، وتدمع العين مِن الفرح.

أجمع ما تبقى مِن ملابسي، أتى رضوان لغرفتي،

قال: طل أتنوين السفر؟ هل ستسافرين مع أمي؟

- ....

- ما رأيكِ فِي السفر معي للرمَّاش؟ لقد كتبتُ لك في رسالتي عنها؟

- نعم تذكرتُ، لكن أنا لم استلم منك غير رسالة واحدة، وقد أخبرتني أنّك أرسلتَ لي رسالة أولى لم استلمها؟

ابتسم وقال لا أدري..

ردَّدت عليه مازحة «هل أصبحت تتحدث بلغة الواثق؟»

ضحك وقال «ما رأيك؟»

قلتُ مُطرِقة للأرض «كما تريد..»

«لا.. هل أنتِ تريدين؟»

أجبتُ بنعم خَجِلَة

قال: «سنغلقُ المنزل، الواثق وأمي إلى خارج السودان، وأنا وأنت إلي الرماش أجمل بقاع السُّودان».

السَّدابِيّ

المحامِي سلَّم أُمّ رضوان جميع العقود والمستندات الخاصة بالسدابي، وكشف بأرصدته في البنك اكتشفتُ أنَّ لأبي ثروة ضخمة، وضعها جميعها في يدها. لم يحدثني قلبي بأنْ أغضبَ، أو أثور لتصرف أبي، وحرماننا الكلِّي مِن الميراث، هل حسب أبي دقائق وجودنا مع بعضنا، جلسات طعامنا، رحلاتنا معه، فرحته بنجاحنا، وعند استلام جوائزنا ضمّه لأحفاده منا؛ أعتقدُ أنَّنا نلنا نصيبنا.. أوافقك يا السدابي في هذا التصرُف الذي أراه نبيلًا، وأمي التزمت الصمت حياله، لزمت الفراش أيَّام ونهضتْ من جديد. أُمِّي التي أعلم، أنظرُ فِي عينيها ماذا فعلتِ للسدابي مِن أجل ألّا يعود أبدًا للسودان؟ سيدني وللي تمّ إنجابهم في كانبيرا، لماذا ظلَّ أبي في قيدك يمتلك كُلّ هذا المال، ولا يرسلُ لأبنائه الصغار. لم نكن أسرة حزينة أو سعيدة، أسرة مُنَظَّمة لأبعد حَدّ مِن حدود الترتيب والنظام. أمِّي تعمل في مجال مستحضرات التجميل، تمتلكُ مركزًا للتجميل، هي وللي أسرة أُمِّي جميعها هنا حتّى جدي، وجدتي لا يوجد لأبي أقارب في أستراليا جميعهم في السودان. لماذا لم يزر

السُّـودَان مرَّة أخرى؟ جـدي وجدتي متوفيين لكنا أعمامي وعماتي أحيـاء، هـو في اتصـال معهـم، يرسـل لهـم التحـويلات النقديـة، لماذا يفعل ذلك معهم، وأبناؤه يبعدون عنهم ١٥ كيلومتر فقط؟ هل لا يعرفُ أحدًا بزواجه؟ ملامح أُمِّي تدلُّ على أنَّها تعلم، كمال والفاتح في شـغل شـاغل مع أبنائهم وأعمالهم. الفاتح وللي أحسُّ بهم أكثر تقبُّلًا، كمال وسيدني كأُمِّي كان الأمر لا يعنيهما، واصلا حياتهما كأنَّ شـيئًا لـم يحـدث.

أُمُّ رضوان تقيم معي اقترب موعد ولادة سـنابيت كانت لها معين أبهجتْ سـنابيت كثيرًا. قالت لي عليَّ السـفر للسـودان. بعد اكتمال جميع إجراءات تحويل الملكيّة باسمها طلبت مني الذهاب للمحامي مِن جديد. قبل سفرها قالت له أريد أنْ تُقَسِّم الأملاك جميعها إلى ثمانيـة أقسـام متسـاوية، نظر المحامي لها باندهـاش، لكنها أعـادتْ كلامها بثباتٍ أقـوى من جديـد.. ثمانيـة أقسـام متسـاوية، إذن هي، وأُمِّي، كمال، الفاتح، أنا، للي، وسيدني، ورضوان ستجمعنا تحت ظلّ أبي معًا. أحسستُ بتقديرٍ عميق تجاهها. قلت لها لو كان أبي يريد ذلك؛ لفعل.. قالت «أعلم ما يريده والدك يا الواثق..»

«هل علمتِ السبب الذي منع أبي من السؤال عنكم؟»

«لا يهمني، المهم أنَّه لم ينسنا أبدًا.»

« ماذا يفيد عدم النسيان بغير الحضور في المكان والزمان، عدم النسيان لا يعيد سنوات الإهمال»

قالتْ «دعك مِن حديث رضوان هذا، تتبدل القلوب في الصدور، وقلب أبيك لم يتبدَّل، وإن نسيت قدماه الطريق.. المحامي قال

لي انه سجَّل هذه الممتلكات على مدار السنين الثلاثين. ليس أيام ضعفه، ومرضه. أذن ما جعل أقدامه تضل كان أقوي منه، وذهب به إلى قبره، يكفيني أنَّ يقيني به، وإيمان قلبي به كانا على حقٍّ».

استلمتُ العقود الجديدة بعد يومين، وكان اليوم المقرر لسفر أم رضوان تفقدتُ العقود فِي الطريق كانت العقود والأموال موضوعة فِي مظاريف بحثتُ فِي الأسماء، لم أجد اسم أُمِّي، الاسم الثامن طل انفجرتُ ضاحكًا فِي عربتي؛ حتى أحسستُ أنَّها ضجَّت لضحكاتي. أُمِّي أخرجت نفسها مِن جدول رعاية أبي؛ فأخرجتها أُمُّ رضوان مِن قائمة ميراثه؛ رغم أَنَّها لا تعلمُ ذلك. أبي وأم رضوان لم يفترقا قط في دنيا الأرواح، وجدت اسمي ضمن المظروف كُتِب عليه الندى الطيب، طل الخاتم، الواثق خلف الله السدابي، رضوان خلف الله السدابي. جعلت قسمتي مِن أملاك أبي الموجودة فِي السودان معهم، أبهجني تصرفها جِدًّا، كأنَّها تعلم كم أحبّ وطني! والأيام التي قضيتها فيه كانت أجمل أيَّام عمري، وصوت المعز الذي لا يفارق أذني «إن متنا سيأتي مَن يُضئ النفق مِن جديد. سأعود للسُّودان لأعمل مع الشفيع خال المعز، نواصل البحث عنه، ونضئ النفق معه، ومِن أجله.

أبي هل تعلم أَنَّ نداك قد أندتْ جبين العالمين بالإدهاش والتعجب مِن تصرفها، اعتذرتْ لعدم إمكانيتها من حضور مولد رضوان الصغير، وعلمت فيما بعد أنّها سجَّلت له، وسنايبت شقة القاهرة، قلت لرضوان اسم والدتك جميل، الندى الطيب قال: «لا شأن لك باسم والدتي، أريد الشقة التي باسمي»

«لا شأن لي هذا الأمر بين الرضوانين» ضحك وقال: «أصبح

السجمان محتال!» قلتُ» «المحتال سيأتي قريبًا للسودان، ولن يرجع مرة أخرى لأستراليا»

في انتظارك أخي الغُصَّة أغلقت حلقينا معًا، غالبَها رضوان قائلًا بمرح العيون وطل المآقي.

شركة المعز فاتو وناجين للتصدير

(١)

شركةA.N.F للتصدير المقر الرئيسي بنيالي يوم الافتتاح، لم نُحظَ بحضور زواجه في كينيا من قبل، كينيا التي كان يتمنَّى أنْ نزورها معًا! اليوم نلتئم جميعنا فيها، اتخذ مجدي الحرف الأوَّل مِن اسم المعز، وأسماء ناجين وفاتو؛ ليكونَ العلامة التجاريّة لشركته. جميعنا كُنَّا حضورًا، خليطٌ مِن الحزن المؤلم، وأفراح استمرارية الحياة وأثر للمعز، قلوبنا تحدّثنا أَنَّه غادر عن دنيانا، روحه تحفنا، نلتمسها عند حمل طفلتيه وزيارة مزرعته.. التماسيح أحستُ بفقده يقول بيتر إِنَّ في ذلك اليوم كانت التماسيح شرسة جِدًّا، لم يستطع أحد من العمّال نظافة المكان، وأصواتهم عالية، جميع أنواع الأصوات صرير، همهمة، نخر، الحفيف، الطقطقة، هدير، وصراخ. جميع البيوض التي صادفتْ ذاك اليوم وُجِدَت مُحَطَّمة، امتنعتْ عن الطعام.. كان يومًا عصيبًا على الجميع،.

أوَّل شحنة تصدير كانت لمجدي مِن مزرعة المعز وبيتر ؛أسنان وجلود تماسيح بقيمة مائه وعشرون . ألف دولار كان فَرِحًا جِدًّا مِن أجل إكمال ما بدأه المعز. وأصبح الوكيل الحصري للسُّودان وشمال أفريقيا، أمّ مجدي السيدة أمل الربيع منسق عام للتوزيع، لا تغيب شهرًا إلا وكانت مع أسرة المعز بكينيا .الكمبوست مِن أَهم صادرات شركة مجدي . جميع الأحياء في السودان تصدر الفائض منه عن طريقها.

جميع الأحياء اتبعتْ نظام الحاج الخضر وأمل الربيع في ثقافة الإهداء . الهدايا بَيْنَ الأهالي والأسر صارت أواني الأزهار والخضروات وسيقان النعناع، أروع الهدايا أصيصة فخار بها جرجير مخضر ، تُوضَع بجانب طعامك، تقطفُ الأوراق الطازجة، تشعر بالرفاهية، والنقاء. مازال الحاج الخضر رغم كبر سنه يعتني ويجدد نعناعاته، ولا يشرب الشاي إِلّا بها .

كما كان يتمنّى المعز أصبحت كينيا وطننا الثَّاني، حيث شهدنا الخطوات الأولي للتوأمين بالفعل. كانت إحداهما قصيرة، مجدي يضمها عليه بحنان متذكرًا قوله لأبيها أنجبت عُقْلَة أصبع خفيفات الظل، مبتسمات دومًا. فلسفة المعز لمعاملة الأيتام التي كان يناقشنا فيها دومًا، اليتم صفة فقط يجب ألّا يصحبها سلوك يُشْعِر بالحزن والألم، لِمَ لا تكون صفة تصاحبها الضحكات والنظرات السعيدة.. لو تعلم يا المعز كم هي صعبة على قلوبنا! نتوجع عليك، ونرسمُ ابتسامات الفرح، والسعادة، والمرح أمام ابنتيك،

خالك الشفيع كان رجلًا حكيمًا ونبيلًا . واليوم نحن نقاسي ما كان

يُقاسِيه مِن تَضارُب مشاعر داخلية فادحة. تألم وابتسامة نرسمها باحترافية على وجوهِنا .روحك نراها حولنا، رقيب علينا مُهَدِّدة ومنذرة إذا يوم غلب اشتياقنا إليك وفراقنا لك حدّ عدم قدرتنا للتحمل؛ نبحث عنك نمني النفس حتَّى لو نجد جزءً مِن ملابسك، أو إحدى نعليك! اختفاؤك يؤلمنا. والدتك نرى وجهها هادئًا متيقنة بموتك، تقول رحمة الله تغشاك، وتغشى جسدك أينما كنتَ.. عند اشتياقها تذهبُ إلى المزرعة، صوتُ نحيبها يجعل جميع كائنات المزرعة تلتزمُ الصمتَ، تغسل وجهها بعد ذلك، تحمل الحلوى فرحة لفاتو وناجين، كأنَّها لم تكن أُمًّا ثكلى منذ قليل. عزيزنا المعز فِي أي مكانٍ، أو فضاءٍ أنت؟ لن نجعل أبدًا النظرة التي لا تحبُّ فِي أعيننا، أمَّام ابنتيك كُلّنا آباء حقيقيون لهم، وحتَّى الدور الذي أغفله خالك الشفيع سنحرصُ على إتقانه؛ فلتهنأ أنت وروحك أينما كنتَ.

بَسْمَةُ طفلٍ

- انظرْ ماذا سيفعل صديقي مجدي الآن

- أَبٌ يلاعبُ ابنتيه؛ ماذا فِي ذلك؟

- هُما ابنتاي، هو صديقي!

- يعاملهم كأَنَّه أنت..

- نعم كم ندمتُ على تَنَمُّري عليه، وتوبيخه.. به حنانٌ وعطف يسعد بناتي، ويبهجهما، انظرْ الآن ماذا سيفعل بعد خروجه، وجلوسه فِي عربَتِه؛ سينفجرُ باكِيًا حزنًا على فقدي.

- وأنت تنظر، وتبتسمُ أي صديقٍ أنت؟

-. أبتسمُ مِن أجل وفاءه لأسرتي، وصدق مشاعره، وحبّه لِي!

- كاذبٌ أنت.. تجلسُ في مقعد المراقب فِي الأعلى؛ لترى كيف يتمُّ

الاعتناء بطفلتيك، تتبع نظرات عيونهم، أخشى إنْ أخطا أحدهم يومًا ستصبحُ كوابيسه.

ضاحكًا:

- سأصبح كوابيس كُلَّ مَنْ يكسو طفلًا يتيمًا بنظرةٍ حزن أو إبكاء.

- أنتَ معتوه، لماذا تتجوَّل فِي سماء بيت أمي، لم أرك مِن قبل، لا في دنيا الإنس، ولا الأرواح من أنتَ ؟.

- مُنذ متى غادرتْ هذا المكان؟

- منذ ثلاث سنوات.

- ولم تأتِ أبدًا إِلى هُنَا؟

- نَعَم..

- الآن فهمتُ.. أنا لي عام هنا، مَن أهيم فوق ديارهم أناس أحبّهم جِدًّا.

- لك عام ؟ولماذا خرجتَ مِن قبرك سريعًا؟

-أنا لم أُدْفَن في قبرٍ، جسدي مفقود.. روحي أخرجتها الريحُ قبل ضياع جسدي، منذ اللحظة الأولى أنا أتجوَّل بَيْنَ أسرتِي، وأهلي، وأصدقائي، شهدتُ بحثهم عني، وتباريحهم اليومَ، اشتقت للواثق رفيق دقائقي الأخيرة؛ لذا أتيتُ إلى هُنَا؟

- هذا منزلنا..

- إِنَّه منزل الواثق شقيق رضوان.

- رضوان لا شقيق له غيري.

- أنتَ منير أخ رضوان، خطيب طل؟

- كيف تعرفُ أسرتي، ولا أعرفُكَ؟ ومَن الواثق؟

- الواثق أخوك الذي سافرت معه أمّك لأستراليا.

- أُمِّي سافرتْ؟

- نعم توفي والدك، ذهبتْ لإجراءات الميراث.

- ماذا قلت.. هل جننت؟ نصيبي أن تقابلني روح مجنونه في سماء منزلي!؟

- دعك من جنوني لماذا خرجتَ مِن قبرك الآن؟

- اشتاقتْ روحي لأخي وأُمِّي؛ جئت مِن أجلهما.. ؟

- والدتك فِي أستراليا رضوان وطل في قرية الرمَّاش. هل تعلم أنّ رضوان تزوَّج بِطَل؟

- كيف لي أنْ أعرف، وقبل قليل خرجتْ روحي مِن القبر!

- أعتذرُ نيابةً عنهما، أنا السبب فِي زواجهما، رجاءً؛ لا تحزن.

- ولِمَ أحزن ما يبهج قلبي أنَّ رضوان أخي سعيد، سعادتي في نجاحه، وتوفيقه.. أتعلم، لم أعرف اسمك، مَن أنت؟

- أنا المعز

- أجمل لحظات حياتي عندما يأتيني خارج من عراك فِي المدرسةِ، أو الحي يقصُّ عليَّ بفرحٍ غامر، مبالغته في سرد ما حدث تسعد قلبي، تنسيني الهموم. عندما أقفُ في السوق أتمنَّى شراء جميع الأشياء له.

- لكن طل كانتْ ستصبحُ زوجتك فِي الحياة.

- طل مَن جعلتْ لحياتي حياة، قدري الموت؛ أتمنى أنْ تجعلَ لحياة أخي طعم. أخي عانى الكثيرَ، وتألم، لم يقل كلمة أبى قط، وأبونا موجود على قيد الحياةِ.

- لماذا لم يكن أبوكم معكم؟

- لا أدري..

- هل تريد أن نبحثَ عن روحه؛ لنسألها؟

- لا أريدُ. حضرتُ مِن أجل أُمِّي وأخي، سأسافر إلى الرمَّاش. وداعًا!

- أنا في انتظارك، لنقيم فِي برزخنا معًا .

- لا .. سأرجعُ إلى قبري مباشرة.

- لماذا؛ هل أنتَ غاضب.؟

- لا..

- أنا رجلُ أعمل منذ أن كنتُ في عمر العاشرة؛ ما زلت أنشدُ

الراحةَ، ولا قبل لي بنظراتك الضاحكة، وبكاء أصدقائك. المشاعر أحاسيس لا إرادية عندما تغمرك البهجة تدمع عيناك.. أخي يسميها طل المآقي، دموع الفرح وكذلك الحزن لا إرادِيًّا، كيف ترغمهم علي ذلك أن تهلك دواخلهم وتكلفهم ما فوق طاقاتهم..

- أصدقائي وأسرتي قد نجحوا في ذلك، وأي قيمةٍ أجمل مِن كتم حزن، من أجل بسمة طفلٍ.

- أنت على حقٍّ.

- وداعًا..!

الخطوة رقم ١١٦

وصلنا الرمَّاش عصرًا، الطريق الترابي الذي يربط الرمَّاش بالطريق الرئيسي، لتجد نفسك داخل جنة الأرض الرمَّاش. العربة تحفها الأشجار مِن جميع الجوانب، نشق الطريق الأشجار، تلقى علينا تحايا الترحيب. عينا طل أشرقتا بابتسامة افتقدها وجهها لمدة ثلاثة أعوام. الرمَّاش أضاءت ابتسامتها. أخي ليتك معنا لم تغادر أمدرمان قط، يوم غادرتها كان إلى القبر، يا ليتك بيننا، طل بين يديك وسعادتي بكم. طل أمامي الحظ اندهاشها بالنقاء والجمال مررنا بقرب النيل الأزرق كحلت عينيها به، رئتاها استنشقت هواءً خُلِق ليبعث الحبَّ والفرحَ. أراها تعودُ من جديد طل حُبّ أخي ماذا فعلت بنفسك يا رضوان بأي عين تنظر لها الآن قلبك سعيد بسعادتها،؟ هل سعادة من أجلها،؟ أم من أجلك؟ ستقيمان الآن فِي منزلٍ واحد غرفة وصاله فقط. أخبرك صديقك أنها ما تمكَّن أن يوفرها لك، خاصة وأنّ طلبك أنْ يكون المنزل بالقرب مِن مُشْرَع العبادي*، وأحاديث هُنده، وياسائق الفيات. وجدتُ نفسي أتَغَنَّي بقصيدة العبادي بطريقة غناء الفنان السوداني أبراهيم اللحو

رحمة الله عليه. التفت لي بابتسامتها الخجلى التي عرفتُها بها أرفع صوتك قليلًا؛ لأسمع أحسستُ بارتباك، التزمتُ الصمت، نظرت لعينيها المطالبتين بغنائي بصدق ما. أشرت بيدي لشجرات ثلاث أعشق ظلالها، وثمارها، ظهورها أنقذني مِمَّا حلَّ بِي. قلتُ لها إنها شجرة الزونيا لها ظل حنين وثمار تشبه العنب ثمارها لها طعم خاص أحبها جِدًّا. أضافت

«في رسالتك قلتَ لي أنَّها عند لا محدودية الجمال، بالفعل أرى جمالًا لا مثيل له. على ذكر الرسالة، رضوان أنا لم تصلني منك غير رسالة واحدة لم تجاوبني المرة السابقة؟»

«نعم المعز حفظه الله أينما كان وجدها، وأرجعها لي.»

«لماذا..؟»

«لأنه كما قال فوضى أقدارنا.»

وصلنا وجدت المنزل كما طلبتُ، أرى النيل منه. غرفتان مِن الطين، سقفه مِن جرائد النخيل المحكمة، صفراء اللون، وفناءه به شجرتا برتقال وشجرة نيم تغطي نصف الفناء. ابتهاج طل قتَّال يذيب القلب، قلتُ لها «جميل أنْ راق لك!» ابتسمت بحياء في وقفتنا في الفناء طُرِق البابُ؛ أهل القرية يعلمون بحضوري، وزوجتي النساء يحملن الهدايا والأطعمة سبقونا بتنظيف المنزل، وفرشه والرجال مرحبين دقائق وضعوا ما أتوا به، وغادرونا لنأخذ قسطًا مِن الراحة مِن عناء السفر. قالت طل سأنقل مكتبتي هنا. ضحكتُ افعلي كُلّ ما تحبين طل صوتي خرج بنغمة أربكتني، وأربكتها. قلتُ سأخرج قليلًا، تركتها تضع الأمتعة في أماكنها وخرجتُ

لأرتب دواخلي.. وضجيج أحاديثي لنفسي..

يوم طلبت منها الذهاب معك كنتَ تعلم أنَّ هذا سيحدث.

رضوان أنتَ تحبُّها،

لا تقل لنفسك مِن أجلها،

دَعْ الكذب،

وواجه حقائقك، وحقيقة أنَّ قلبك يميل لها لماذا تقف حين استحمامك عند آثار يدها على جسدك، تذكر في تلك اللحظة.. إنك لا تتذكر السبب الذي جعلها تترك آثارها عليك، وتترحم على أخيك، أنت تمسح عليها بحبٍّ متمنِيًّا أن جسدك يصير كله آثارها، وتُمَنِّي نفسك بأنْ يرجعَ بريق عينيها..

الضيوفُ يملؤون منزلنا، طل تعيش حياة الالتفاف الاجتماعي لأهل الرمَّاش، لا فردية هنا، الكُلُّ كحِزَم النور، أرجع مِن عملي نهارا، تنتظرني بقصص الصباح، وزياراتها لأهل الحي مع الجيران الذين لديهم مناسبات سارة أو حزينة. قلت «لها طعامك لذيذ» قالت «لم أطبخ منذ أن وصلنا هنا يأتينا من أهل الحي» أتاني ردٌّ عفوي، أوشك لساني أن يفلته، عضضتُ عليه بأسناني بشدّة، أعتقد أنَّ طل قد أدركته. خيَّم الصمت على غدائنا. عند السادسة ارجع لعملي،

انتهي عند التاسعة أسوأ أوقاتي مشوار الطريق إلى المنزل ورائحة دخان الطلح تملأ الأرجاء معلنة «هُنّ سكنٌ لكم وأنتم سكنٌ لهن» أحسب الخطوات١١٦ خطوه تتنازع فيها المشاعر وتختلط بالواقع

والأماني وإصرار الأسئلة .. ماذا نريد؟ كثيرًا ما أقول لنفسي، أنا وطل محتالان؛ نعلم أنَّنَا نحب بعضنا، حتَّى وإنْ كان حبّ لا يُدرَج تحت مُسَمَّى مِن المُسَمَّيات المُعَرَّفة لأهل علم النفس. هناك رابط يجمعنا معًا، عسى هو ما سيجعلنا نتجاوز وجود منير بيننا. ترحمت عليه، لم أترحم عليه رحمة خاصة منذ وقت طويل، ترحُّم آلي تعوَّد عليه اللسان عند ذكره. اليوم بحاجة لترحم خاص ومناجاته ربي بأن ينزل رحمته عليك. يا أخي، أبي، صديقي، وحيرتي. أين أنت الآن يا منير لتنير طريقي كما كنت تفعل في طفولتي وصباي. ظلمتي تهفو لقليل من نورك الذي سبقته عليّ وعلى عيني أمي أين أنت الآن؟ هل أنت بقبرك تعاتبني لزواجي مِن طل، أو تشكرني لأنني أحميها لك مِن غيرك؟ وهل تصدق أنّني أحميها مِن غيرك؟ شخصان فِي منزل واحدٍ؛ ماذا تتوقع أنْ أفعل؟ ولمتى يمكنني أنْ أتعذّر بعذر حمايتي لها. منير أخي أعلمُ أنّ روحك تحوم حوالي، ورُبَّما تعلم ما سأقوله لك: قلبي يحب طل. لا أدري كيف؟ ولماذا؟ ومتى؟ آثارها التي في جسدي تثيرني، منظرها وهي تبكي فِي حضني يحسسني بالضعف، منظرها لا يفارق عيني، غشاء دموع عينيها البرَّاق يذيب روحي، ابتسامتها عادت لها لا أدري بفعل الصفاء الروحي فِي الرمَّاش، أم بسببي. لماذا تتحاشى النظر لي؟ هل ما يدور في رأسي يدور بخلدها. الخطوة رقم ١١٦آخذ أكبر كمية مِن الهواء، أخرج زفيرًا متعددًا، أطرقُ البابَ أولًا، ثُمَّ أدير القفل، عادةً طل ترتدي الثوب المخصص لصلاتها، وتستقبلني، لم تأتِ.. استغربتُ للأمر، ناديتُ عليها طل المآقي.. خشيتُ أنْ تكون نائمة، عادة أنام في الصالة، وهي داخل الغرفة، صحتُ مِن جديد، طرقتُ الباب الداخلي. أسمعُ صوت بكاءٍ عنيف، وجدتُها تجلسُ وفي يديها أوراق

تقرأُها مذعـورةً، مـاذا هنـاك؟ تـواصـل قـراءتهـا، وعـلا صـوت نحيبها، نظرتُ لِمَا في يَدِها وجدتُ رسالتي الأولى إليها، التي حجبها عنها المعز. قـالتْ بَيْنَ دموعها: «رضـوان أنتَ بحاجةٍ لطبيبٍ نفسي..»المرَّة الأولي التي أضحكُ فيها، وطل باكية، ضممْتُهَا بَيْنَ يديّ، ويقيني أَنَّنِي رأيتُ منير يُلَوِّحُ بيده مبتسمًا لِي.

النهاية

الفهرس